حياة رخيصة

قصص قصيرة

جمعة محمد جمعة

إهداء

الى قارئى العزيز ٠٠

باقة ود ٠٠

جمعة محمد جمعة

دراما الحياة

وهو ما بين النوم واليقظة ، بعد الفجر بقليل ٠٠ صدر اليه الأمر « عليك بالرحيل ٠٠ لابد أن ترى أهلك وتطمئن عليهم جميعا » ٠٠ مع حركة الحياة والأحياء ودع طفله وزوجته ، وأهلها ، كانت رحلته من كفر عوض بالمنصورة الى القاهرة ، رحلة تقطعها السيارة فى ساعة وبضع دقائق من زمننا ، لكنه قطعهـا فى سنوات ، يرى أحلامه وقد صارت فى متناول يده ، تلك الأحلام التى توالدت خلال سنوات الشقاء والمعاناة ، طلب عن طيب خاطر تسوية معاشه ، أنه يجتاز الأربعين بعد أيام قلائل ، وبحسبة وجد المعاش يقل مبلغا لا يضاهى مشاق الالتزام المميت بالوظيفة ٠٠

كانت الرحلة الطويلة غير سعيدة على الاطـلاق ، عندما يقول « غدا أستريح باذن الله » يأتى الغد بمشاغل ومشاكل لا حصر لها ، كانت الوظيفة شاقة ومرهقة ، يكفى شقاء كل يوم صباح مساء فى الانتقال من طرف القاهرة الشمالى الى طرفها الجنوبى ، كانت شركة الحديد والصلب مفخرة كل الناس ــ آنذاك ــ كالكابوس بالنسبة له ، كابوس منذ الفجر الى المغرب ، استطاع بالوساطة الخيرة أن ينتقل الى الشركة التى يعمل بها أبوه وأخوه الذى يصغره ، كان يوم

عيد فقد انزاح الكابوس الذى يأتيه بالنهار على خلاف طبيعته ، لكن أنى يستريح وأخويه اللذان يصغرانه بالجيش ، وهو مطلوب للتجنيد ، قدم التماسا . هل فى الدنيا أشقاء يعيشون فى بيت واحد لا يلتقون الا صدفة ، لا تتعد أيام لقائهم أصابع اليد الواحدة طوال سنوات ٠٠ كان محمد بالصاعقة ، وابراهيم بالمدرعات ، ومصطفى بالطيران ، محمد بالصحراء الشرقية ، وابراهيم بالعباسية ، ومصطفى فى أسوان ٠٠

ركب محمد الطائرة ـ لأول مرة ـ ورفاقه الى ليبيا ، درع أمان للثورة الوليدة هناك ، والأرض تحتلها الصهيونية ، والجيش يعيد بناء نفسه من جديد ـ من الصفر ـ اللامعقول صار معقولا ، أخيرا نظرت العناية فى التماسه ، وعاد من ليبيا ليجد قرارا باعفائه من الخدمة الى حين ، عاد محمد الى حياته المدنية ولكن ، الأيام مرة ، والحياة ـ كل الحياة ـ تعيسة ، دراما الحزن على طبيعتها ، اليوم بطوله ، ليله ونهاره مهدد بالدمار ٠٠ قنبلة هنا ، غارة هناك ضحايا هنا ، قتلى وجرحى هنك ، والأمان عملة نادرة ٠٠

كان محمد ـ كبنى وطنه ـ ترس أخرس فى آلة صماء ، تدور وتدور ، أعتى الكوارث جبروتا لا تحرك دمعة واحدة فى عينيه ، مرة أخرى ارتدى زى الجندية ، الأوراق لم تستكمل ، مرة أخرى تخندق لا جديد ، من ترس فى آلة الى زناد فى خندق يستويان فرغت رأسه تماما مما يسمى فى الكتب بالأحلام ، لا أسى ـ يرى نفسه صفر اليدين ، رفاقه وأصدقاؤه المدنيون أيضا أصفار الأيدى ـ المساواة شعار طبقته دواما الحياة فى عدالة ، وفى هذه البقعة من أرض الله ٠٠

خرج محمد من الجيش الخروج الثانى مولودا فى الميل الواحد والثلاثين من رحلته ، من أين يبدأ ؟ وكيف ؟ ، نبتت فى رأسه

الفكرة المعاصرة ، الرحيل مهر الحياة ، بدونـه لا مقومات للحيـاة البشرية السوية ، كان حلمه الأوحد أن يعمل باحدى الدول التى تملك سبيل الحياة ، الحظ المعاند يتحداه ، استدان ليعود لوطنه مستنفدا كل ما استدانه ، خائب الرجاء ، الفشل يمده بالعزيمة والاصرار ، أنه هذه المرة مسئول عن زوجة ؟ كيف ؟ حكمة الله ٠٠

كان زواجه نوعا من التغيير بقصد التحايل على الحظ المعاند ، احتوته وزوجته حجرة فى بيت الأسرة ، تملكه أمل وحيد ، الرحيل من أجل الحصول على شقة ، يعز عليه أن يقضى حياته دون الحصول على مكان خاص به ، كل شىء فى حياته حتى الآن مشاعا بينه وبين أفراد عائلته ، زوجته خصوصية وحيدة ولكن أمام أعين الجميع ٠٠

مرة أخرى سافر محمد ، تاركا زوجته يؤنس وحدتها جنين بين أحشائها ، بينه وبين الأمل الأوحد باب وحيد ، أوصد فى وجهه، ما الخبر ؟ ٠٠ « عد من حيث جئت ٠٠ تأشيرتك مزورة » ٠٠ جناحا الطائرة يشقان السحب البيضاء فى جبروت ، والعودة بغير أمل فى الغد ٠٠ « هل تمكن انسان القفز من الطائرة منتحرا ؟ ٠٠ لا احد ٠٠ » ، مصمص أصبعة وقال « ولا أنا » ٠٠ ثم ٠٠ « الجنين يضرب أحشاء أمه احتجاجا على تلك الفكرة المجنونة » ، وعاد ٠٠

كان ــ لا شىء ــ يثنى عزيمتـه عن السفر ، لا الاحبـاط ، ولا الخسائر المادية ، توقفت حياته كلها على قدم واحدة يطأ بها أرض الأمان والرخاء ، وأخيرا نجحت المحـاولة الثالثة ، ووطأها بقدميه الاثنين ، عام لسداد الديون ، وعام للمتطلبات الملحة العاجلة ، وعام للمستقبل ، قفزت الى ذهنه الآمال دفعة واحدة ، تعجب « أين كانت متوارية » بعد أن كان الأمل شقة صغيرة صار بيتا ، وبعد أن كانت العودة الى الوظيفة صارت مشروعا ، وبدأ يعد العدة لشقاء سنوات قليلة أخرى تكون بعدها الحياة هانئة ، وادعة ، آمنة ، طوت الآمال

صفحة الخسارة الفادحة بموت أبيه خلال غربته ، كما طغت الأحلام على الأيام القليلة المحزنة ··

فرض الواقع نفسه وسائق السيارة يقول « ميت غمر » ·· رسمت ضحكة الصدر والقلب معا أساريرها على وجهه ، كان فى صغره يقرؤها أثناء سفره مع والديه « ميت غمر » بتشديد وكسر الياء » الا أن سمعها ذات مرة فصحح مفهومه لها·· تداعى الى ذاكرته مفهومه لاسم بلدة أمه ، كان ينطقها « كفر عوض » على غرار كتب عمر ، وكان يسأل أمه فى سذاجة « لماذا كفر عوض ؟ » فتضحك ويضحك الذين يسمعونه ، ترك هناك ابنه وليد وزوجته فى أشد حاجتهما الى وجوده ، ستضع طفلهما الثانى بين ساعة وأخرى ، انتابته غصة ألم ·· « لماذا تركها وهى فى حالتها الصعبة ؟ » ، تطلع الى الافق أمامه كمن يسأل : « لماذا يارب ؟ ··

شعر بقلق أمه لغيابه أسبوعا بكامله ، لا تعرف هل وضعت زوجته أم لا ·· تذكر أن اليوم الخميس ، موعده مع المهندس المسئول عن مواد البناء لمزرعة الدواجن ، حمدا لله أن تمت المعاينة وحصل على تصريح اقامتها ··

كانت مزرعة الدواجن هى نتاج الأمال بعد الاستقرار ·· وكم من مشروعات درسها ليجد نفسه فيها ، وجد فى هذا المشروع حيوية مرتبطة بمعدة البشر ، ولن تتوقف معدة البشر الا بفناء الحياة ، وجد فيه مستقبل أسرته ، حيث يستقر فى بيت مستقل ، لا ضوضاء ولا زحام ، ولا هواء فاسد ، ولا طوابير فى شتى شئون الحياة اليومية ، وجد التشجيع من الجميع ، وأذرع المساندة تمتد اليه من الأقارب والمعارف والأصدقاء ، تخايل أمام عينيه كفاحه وكأنه يمتطى فرسا بريا ظل سنوات طويلة يحاول ترويضه ، ها هو آخيرا يمتطيه فى أمان واطمئنان ··

الطريق أمامه طويل ، تطويه السيارة بلا رحمة ، سباق السيارات عليه كسباق البشر كل الى غايته ، لا نهاية له ولا جائزة سباق تافه ، لا يساوى ذرة خوف من حادثة مفاجئة ، ولا ذرة قلق ممن يودعون الراحلين بالآلاف كل يوم على طريق السفر ، الى اليمين مرقت سيارة مقلوبة ، الى اليسار تعانقت سيارتان فى قبلة مميتة ، ثم ٠٠ بائعو البرتقال واليوسفى يقيمون كرنفالا ، هرم البرتقال ديكور حتى لا يكلف شيئا ، يشد الأعين ، وينتزع الشوق من الأغوار للذة أكله ٠٠

« حمدا لله على السلامة » ٠٠ قالها سائق السيارة باردة كالجليد وقالتها أمه فى حرارة اذابته ، غرق وجهه فى قبلاتها ودموعها ، لقيه أخواه وأختاه ، تساءلوا جميعا على لسان الأم القلق:

ـ هل وضعت أم وليد ؟ ٠٠

قال محمد :

ـ ليس بعد ٠٠

ارتفع صوت الأم فى نبرات تكابد الألم :

ـ يا عينى يا ابنتى ٠٠ طال ألمك ٠٠

ثم رفعت وجهها معقبة :

ـ ربنا يتولاك بعنايته ٠٠

بعد أن شبع الجميع من رجبة اللقاء الدسمة ، أستأذن محمد لبعض الراحة على سريره ، لم ينم ، كان قلقا ، فما ان حل بالبيت واطمأن ، شعر برغبة عارمة لمعاودة الرحيل ، ربما تلد زوجته فى هذه الساعة ؟ ، ربما بعد ساعة ، من يمسك بيدها فى لحظة خروج الحياة من ظلمة بطنها ؟ ، من يهون عليها آلامها ويشجعها ٠٠ ظل

ليالى الأسبوع يعد العدة لاستقبال الوليد ، الأمل الذى بذرته الطبيعة ، ليتوج آماله كلها ، الأمل الذى نفخ فيه الله من روحه ورعاه فى نموه ، ولم يبق الا آن يأذن له بالصراخ ..

قام محمد يائسا من الحصول على قسط من النوم ، طلب اعداد الحمام كمنشط للبدن والروح ، وأثناءها وقف بالشرفة ، يلقى ايماءة هنا ، وكلمة تحية هناك ، ابتسامة لساكن الطابق الأعلى ، يرنو الى صخب الأطفال أمام شرفة الطابق الأرضى ، وعجلة المارة من رجال ونساء وسط الشارع ، كل عائد من عمله ..

نادته أخته :

ـ الحمام جاهز ..

دخل الحمام ، نضا عنه ملابسه ، أخذ حماما منعشا ، نودى عليه لتناول الشاى فرد :

خلاص ..

ثم صرخ صرختين :

أى .. أى ..

وسمع صوت ارتطام ..

بيت تحت الشمس

ســـؤال بسيط كان فى البداية ، ولم يكن وراءه شىء فى لحظته ، ســؤال يمكن ســؤاله لأى عابر سبيل سواى ، وفى ردى عليه لم يكن فى الحسبان ان يحدث بعده ما حدث ٠٠

ـ كم الساعة ؟

أجبت :

ـ الثامنــة ٠٠

قالت :

ـ مع الشـــكر ٠٠

نظرت بجانب وجهى افتش عن هويتها ، أطراف الأصـــابع رقيقة خالية من تلك الأسلحة المدببة التى تتشكل بألوان الطيف ، الشفتان الصغيرتان على لونهما الطبيعى تختلجان من لســـعة برد تغشى الجو ٠٠ الحاجبان الكثيفان لم تمتد اليهما يد التهذيب ٠٠ الأنف الدقيق يتقلب لونه بين الأحمر والأبيض ، الشعر تخفيــه

طاقية من التريكو بيضاء ‥ أصابعها العشر خالية مما يطلق عليه فى عالم النساء حزام الأمان ، كل ما شـاهدته يبرهن انهـا مثلى على باب الحياة تنتظر النصيب ‥

فتحت حقيبتها وأخرجت بضعة قروش ، وخرجت يدى من جيبى بمثلها ، فتحت نافذة السيارة المجاورة لهـا ومدت يدها لتتناول جريدة الصباح ، بائع الجرائد الذى كنت أتعامل معـه ينتظرنى منذ عام ‥ ترى هل يتذكرنى ؟ قرش منى احتضنته يد السائل الذى يخترق ممر السيارة ، ومثله منهـا ، وقفت بجوار مقعدى فتاة خيل لى ان طلاء شفتيها القانى يتساقط نقطة نقطة ، ذكرنى وجهها بمهرج الملوك ، طلاء أبيض يحيط بعينيها ، وآخر أسود فوق حاجبيها وثالث مائل للأحمرار حول جيدها ، عدت الى جيد جارتى فوجدته متدثرا برقبة « بلوزة » رقيقة فى نسـيجها رقيقة فى لونيهـا الأخضر والأبيض ، تطـالع صفحة أخرى من الجريدة وتقرأ مقالا عن حق جديد للمرأة ‥

تحركنا مع السيارة فى رحلة حرمت منها طويلا ‥ ها أنـا قد عدت بعد أجازتى الطويلة الى العمل ، قضيت العـام المنصرم خارج البـلاد ، تنهـدت وأنا ألقى اطلالة سريعـة على الشارع المتلىء بالزحـام ، ذهبت قبل الأوان للعمل ، بدأت بتحية رئيسى فى مكتبـه ، انه الرجـل الأنيق ، رئيس وأخ أكبـر فى أوقات الفراغ ، ثم تحية الزملاء والزميلات أعضاء الأسرة ، جميل شعورى اليوم بالحب ، ان اليوم أفضل من الأمس أين كنت بالأمس ؟ كنت هناك أشم فى طعامى رائحة الغاز كلما قبضت مرتبى قبلت يدى حمدا لله ، ثم أحيا من جديد عبدا للوحدة والقلق ، جميـل ان وجدت لى مكانا فى السيارة يحيط بى الناس من كل جانب ، بعد عام من الضياع وجدت مكانا تحت سقف بيتى ، تحت سـقف السيارة ، تحت الشمس .

عدت الى جارتى ، أشعر وكأن معرفتى بها وطيدة ، تتجلى فيها الطبيعة والأصالة ، أرى جارتى وقد طرحت عنهـــا مظاهر الزيف شعرت بالنفور من هند بنت عتبه التى افتش عن مثيلة لها بلا جدوى ، عجبت لتبدل الحال بتلك السرعة ، قبـــل عام كان العثور على فتاة فى ثوبها الطبيعى أمر شبه محال ، تخايل أمام مخيلتى الجواد الأبيض ، نظرت الى ست الحسن وابتسمت ٠٠ كان لقائى بالزملاء حارا بدد آلام فراق طويل ، تســاؤلات كثيرة وأنا أصافحهم كيف أنت ياســـعيد ؟ وأنت يامحمــود ؟ وأنت ياعلية ؟ وأنت يانجوى ؟ أوه وأنت ياســـعاد ؟ لمســات رقيقة من التغيير تبدو واضـــــحة أمام عينى ، همست لنفسى : ماذا غيرك ياعلية ؟ ، أين قطعة اللادن تطرقع بين أسنانك ؟ وأين اختفت انشودتك المفضلة انك صاحبة أجمل ساقين ؟ ، وأنت يانجوى : أين عطور باريس ؟ وأثواب الشانزليزيه ؟ ، وأنت يا سعاد : أين اختفت الرقة والنعومة ، وهل كففت عن مضغ الكلمات وأكل بعض الحروف ؟ ، أين ذهب كل ذلك يابنات ؟؟؟ كثير من الأسئلة تنهال عليهن منى ، وكثير من الاجابات أرد بها على أسئلتهن ٠٠

جلست أتأملهن ، وجارتى في السيارة تبرز أمام مخيلتى ، انها مثل زميلاتى ، عملية وطبيعية ، نفضت قشورها المستوردة وظهرت على طبيعتها أجمل وأحلى ، أخرجنى محمــود من تأملاتى متسائلا :

ـ كيف كانت أحوالك هناك ؟

قلت وأنا أمضغ الحسرة :

ـ بكل أسف كانت سيئة ٠٠

بتقطيب جبهته عبر عن دهشة ، علق بسؤال آخر :

ـ كيف ؟ ، انك أول من يصف حـاله فى البـــلاد الغنية بالسيئة ..

قلت فى اختصار شديد :

ـ يكفى اننى فقدت انسانيتى ..

تدخل سعيد فى الحديث قائلا فى لهجة ساخرة :

ـ يا سيدى .. ألم تدخر لك ألفين من الجنيهات ؟

قلت وأنا أكتم غيظى :

ـ افتقدت مالا يقيم بالآلاف .. قلت لك فقدت انسانيتى..

ثم نفست بعض غضبى فى سيجارة أشعلتها ، قلت محاولا محو بقية غضبى :

ـ أتعرف ياسعيد شيئا عن انسان الغاب ؟

قال :

ـ طبعا ، ومن لايعرف يا أخى ؟

بغير وعى انطلقت صائحا :

ـ لا تقل يا أخى ، لاتقلها أبدا أمامى ..

اطفأت النظرات المحلقة نيران ثورتى ، أمطرتنى بوابل من الخجل قلت مستدركا :

ـ أسفت ياسعيد ، أرجوك أن تغفر لى غضبتى ، لكن لاتقل هذه الكلمة مرة أخرى ، سمعت فى غربتى هذه الكلمـــة مطعمة بالسموم ، يا أخى أنكم تأخذون أموالنا ، اعمل يا أخى ستعود لبلدك غنيا وتودع أيام الحرمان ، ايش تبغى يا أخى ، مرتبـك

عشرة أضعاف مرتبـــك فى بلدك ، ليش يا أخى بتثور بامكانى ارجاعك ، بالتليفون أحضر عشرات غيرك ٠٠

اعترانى الصمت فجأة ، هتف سعيد بابتسامة طيبة :

ـ مرحبا ياعزيزى فى بلدك ، أنى أعتذر والله ، دعنى أقبل رأسك ٠٠

وأقسم أن يقبل رأسى لارضائى ، تبادلنا الأحضان والقبلات، قلت وأنا أخفى دمعة فى عينى :

ـ الحمد لله على كل حال ٠٠

تبدد الجو المشـــحون والتففنا حول علبـــة الحلوى التى اشترتها زميلتى علية احتفالا بى ، شعرت بالسعادة وجو الأسرة يحيط بى ، الأسرة ، قفزت جارتى فى الســيارة الى الصـــورة ، واحتواها وحدها الاطار الذهبى ٠٠ رأيتها فى علية ، وفى نجوى، فى سعاد فتشت فى مخيلتى عن هند وكلما حاولت جمع ملامحها تلاشت وتبددت ، قلت فى نفسى : « هل أفوز بلقاء آخـــر مع جارتى ؟ » ، بدا الفوز بتلك الأمنية بعيد الاحتمال ٠٠

أيام تمر ولا شاغل لى الاها ، لم يحتمل صـــدرى كتمـان الأمنية فبحت بها لصديق عزيز ، قال منشرحا :

ـ ستعجبك جدا فتاة اليوم ، لقد عادت لواقعها ٠٠

قلت متأثرا بعاطفة جياشة :

ـ البلد كلها عادت لواقعها ، ومن الواقع بدأت انطلاقتهـا الحقيقية ٠٠ هذه هى الحضارة ، من خلال الواقع نخطو نحـــو المستقبل ٠٠

ثم عدت به الى الحديث عن جارتى :

ـ سافاتحها فى رغبتى بمجرد أن نلتقى ..

وازددت شغفا بتحقيق الأمنية التى جاشت بصدرى ، كنت أراها فى كل فتاة أصادفها فى عرض الطريق ، وأكاد أبدأ معهـا الحديث ولكننى أثوب الى رشدى فى اللحظة الأخيرة ، ألوم نفسى على تضييع فرصة أول لقاء ، وفى لحظة قررت أن أحصـل على أجازة وأترقبها ، أفتش عنها فى كل سـيارة ، ليس أمامى غير هذا ، لعل الله يحقق لى أمنيتى ..

لمحتها واقفة تحت الشمس ، تنعم بالدفء ، تمر السيارات أمامها وهى فى سكون ، تحيط السيارات بنظراتها ، بدت وكأنها تفتش عن أحد ما ، قفز قلبى طربا وأنا أتخيلهـا تفتش عنى ، وقفت وراءها دون أن تحس بى ، همست بصوت خفيض لا يصـل أسـماعى :

ـ كم الساعة ؟

فوجئت به يصل أذانها المترهفة وتلتفت الى :

ـ أنت ..

قلت :

ـ أجـل أنا ..

لا ندرى كيف تحركت يدانا وتشـابكت أصابعنا ، التقت الأوردة وتعانقت الشرايين ، قلت فى اختصار :

ـ عدت منذ أيام من الخارج ..

قالت :

ـ لم أبرح بلدى ..

قلت :

ـ أملك بعض سبل العيش ..

ـ قالت :

ـ أصفار تحيط بى ..

قلت :

ـ أتمنى لو .. ..

قالت :

ـ فكر ثم فكر ثم فكر ..

قلت :

ـ فكرت ، وفكرت ، وفكرت ..

قالت :

ـ والأمس ؟

قلت :

ـ كان علينا ..

قلت :

ـ والغـد ؟

قلت :

ـ لنـا ..

قالت وهى تتابع سيارة غادرتنا :

ـ ما كان ينبغى ان نتأخر ..

قلت :

ـ كنا نضع أساسا لبيتنا تحت الشمس ..

ولا أدرى كيف جاء الاتفاق اذ قلنا فى كلمات متفقة تماما ، ومعا : « ترى هل يعرف أحد ان الحب يمحو الآلام ؟؟؟ »

هذا الرجل ·· أبى

بدأ الخوف يجتاحنى ، لمست بعض التهاون بين العمال ، قل الانتاج ، كثرت الحجج بتعطيل الماكينــات ، فتر الحماس ، تراءت لى عشر ســنوات مرة كانت حصيلتهـا شركتى التى أتى تأسيسها على كل ما استطعت ادخاره ، تراءت لى الوظيفـة كملاذ للعاجز الذى لا حيلة له ، تراءت لى أحلامى على وشك الانهيار ·

كان حلمى فى الطفولة ان أركب طائرة ، أهـرع الى الشرفة كلما سمعت أزيزها فى الســماء ، ألاحقها حتى تختفى فيصيبنى الأسى ، لاحظت أمى تكدرى كلما اختفت طائرة ، اعتادت ان تلقمنى قطعة شيكولاته أو قطعة لادن تلهينى ، حين صرت صبيا قال أبى :

ـ تريد أن تكون طيارا ؟

تساءلت عن وظيفة الطيار ، عرفت انها شاقة ، يقضى الرجل حياته سابحا فى الجو ، قائد الطائرة يؤم آلاف المسافرين كل عام ، رضـيت أن أكون قائـدا لكن على الأرض ، حينئذ أركب الطائرة برغبتى ··

حين انتهيت من دراستي الجامعية ، سبحت في الفضاء الى باريس لاكمل دراستي ، كنت تواقا الى العلم ، استأثرت المحاسبة باهتمامى ، وصممت على الحصول على الدكتوراه ، حملتنى الطائرة التى لم يشاهد أحد أفراد أسرتي شكلها الا عند وداعى ، سبحت والسعادة ابتسامة عريضة على شفتى ، زغرودة بين أضلعى ، انشراح فى صدرى ، أمام عينى الماجستير والدكتوراه والحياة ، نظرت من خلال زجاج النافذة الى الفضاء ، تركت ورائى أسرة على الكفاف ، أعيش حلمى ، اقتات فيه نصيب أمى فى العشاء أغلب الأيام « كل يا حبيبى ، تجهد نفسك فى المذاكرة وتحتاج الى الغذاء » ، أشرب فيه كوب شاى أبى الذى يؤثرنى به « أشرب يامجدى ، أنت تسهر وتحتاجه أكثر منى » ، البس بقيمة ما يخص أخوتى ، يقولون جميعا « أنت الأكبر وفى الجامعة ، لابد ان يكون مظهرك مناسبا وسط زملائك وزميلاتك » .

كنت أحلم بركوب الطائرة ، وأبى يوفر قرشين ثمن مواصلاته الى عمله ، يستيقظ مبكرا ساعة ليصل الى عمله فى الموعد ماشيا ، تستيقظ أمى – أغلب الأيام – تسابق ضوء النهار لتصل الى المخبز لتشترى الخبز المرتجع من المحلات لأنه أرخص ثمنا من الطازج ، تحمل فوق رأسها المائة رغيف وتعود قبل أن نستيقظ لتعد لنا طعام الأفطار ولوازمنا المدرسية ، كان اخوتى يدخرون خفية ما يصل أيديهم من قروش قليلة ، وحين أحتاج لكتاب لا يمكن استعارته ، ويشعر الجميع بالأزمة ، تخرج مدخراتهم لتكون عونا على تدبير ثمن الكتاب . .

كنت أحلم وقد أحجمنا عن استقبال الزوار ، شقتنا الضيقة لا يوجد بها مكان لجلوس ضيف ، حجرتان للنوم ، واحدة للصبيان والأخرى لأبى وأمى وأخواتى البنات ، أما الصالة فمقسمة بستائر من القماش ، لكل منا مكان يسعه بالكاد يذاكر فيه . .

كنت أحلم ، وأسرتنا لا تعرف من أنواع الطعام الا البطاطس محمرة ، مهروسة ، مطبوخة ، أو فى صينية ترســـل الى الفرن لانضاجها مقابل قرشين، لا حبا فيها وانما لرخص ثمنها ، أما الفاكهة فلا أرخص من البرتقال ، أو اليوسف أفندى ٠٠

كنت أحلم ، وقدرة الله وحدها القاسم المشترك فى حياتنا ، دخل الأسرة بأفرادها الثمانية ، منهم خمسة فى مراحـــل التعليم المختلفة لا يزيد عن مرتب أبى المحدود بثلاثين جنيها فى الشهر ، ولا ينغص العيش أكثر من عويل وصراخ اختنا الصغيرة ـ آخـــر العنقود ـ للتقصير فى تلبية طلباتها من لعب وحلوى كأقرانها فى السن ٠٠

وحين انتهيت من الجامعة ، قررت العمل لاخراج الأسرة من بؤرة العوز ، أى عمل فالوقت قاتل لثمانية أفراد اذا لم أجده ، والوظيفة لها طابور يمتد الى سنتين على الأقل ، الأسرة فى تذمـــر خفى لايبين الا فى المناسبات والمواسم والأعياد ، بتخـــرجى بدأت أحلام اخواتى تترأس مائدتنا المتواضعة التى تجمعنا ، بعد ان تطرد أبى لاستحالة تحقيقها لهم ، فاذا كان الافطار قال أحدهم :

ـ ياسلام على رغيف الخبز الأفرنجى مع كوب من اللبن ٠٠

ويرد أخ آخـــر :

ـ اسكت والا أغضبت المدمس فلا نجده غدا ٠٠

كان أبى يدخر غضبه فى قلبه الواسع ، يقول لى :

ـ اصبر يامجدى ، غدا يعرف كل منهم حجمه ، وأفضـــال البطاطس عليه ٠

وانفجرت قنبلة التـــذمر حين جاءتنى منحـــة الجامعة لاكمال دراستى فى فرنسا ، رصاصات نظراتهم تلقانى أينما يممت وجهى،

شظايا كلماتهم تدمى اذنى حينما أستمع اليهـا ، وقف كل منهم فى جانب وكأنه يتربص ليفتك بى ويخلص الجميع منى ، اجتمعوا على شىء واحد قالته أختى الصغرى ذات لحظة غضب :

ـ نموت نموت ويحيا مجدى ..

رددوا وراءها بصوت لا يصل أسماع أبى ، تخيلت مظاهرات الجامعة ، هرولت اليه فى حجرة نومه وقلت غاضبا :

ـ أبى ، لن أسافر ..

ـ مستحيل يامجدى

قالها وقد احتقن وجهه بالغضب ، رأيته ـ لأول مرة ـ خارجا عن طوره ، غادر حجرته ثائرا ، جمعهم حوله وقال :

ـ ماذا تريدون ؟ اذا كنتم تريدون العلم والمستقبل فعيشتنا هى السبيل اليـــه ، واذا أردتم المأكل والملبس فاذهبـــوا حيث تجدونهما ، الباب مفتوح لن أمنع أحد ..

كتمت الدمع بالمنديل فى يدى ، والمضيفة تقترب ، تناولت فنجان القهوة شاكرا ، أرشف قهوتى وأحـوال أسرتى تدفعنى الى العمل ، لابد أن أعول نفسى ، وأن أعينها فى نفس الوقت ، لابد ان أزوج العمل بالدراسة ، لابد .. لابد .. لابد ..

كان زمن المعاناة قصيرا وجدت عملا متواضعا ، وانتظمت فى دراستى ، لم يكد ينصرم العام الأول الا وانتقلت الى عمل آخـر أكثر رقيا وأوفر دخلا ..

وحين انصرمت سنوات الدراسة ، وجدتنى فى مكانة وظيفية لا محل للاختيار بينها وبين حلم العودة الى الأسرة ، فقررت الاستمرار

حتى أعد نفسى للمشروع الذى داعب خيالى فى المرحلة الأخيرة من دراستى ٠٠

خمس سنوات تشبعت فيها باسلوب الادارة الناجحة ، اكتملت على الورق دراستى للمشروع ، صممت ، وعزمت ، وتوكلت على الله ٠٠

لم أتوان فى البدء بعد عودتى ، كان حلمى الأول ركوب الطائرة وتحقق ، يوم سافرت ، وكان حلمى الثانى تيسير الحياة لأسرتى واستطعت وأنا بالخارج ، بدأ حلمى الثالث قبل انتهائى من الدراسة ، والحصول على الدكتوراه ، وها أنا أشيد شركتى ، حال أسرتى يدعو للانشراح ، تخرج أخوتى والتحقوا بوظائفهم ، تزوجت أختى الكبرى والصغرى على وشك الانتهاء ، أما الأصغر فقد نالت حظا من التدليل بعد الضرب والايذاء ، بينما ظل أبى على حاله ، يذهب الى عمله ماشيا ، حين طلبت منه ركوب سيارتى لتوصيله رد فى هدوئه المعهود :

ـ يابنى ، الرفاهية بعد شقاء العمر كله قتل ٠٠

وحين طلبت منه ترك حلة المصلحة الزرقاء قال :

ـ يابنى ، كلكم خرجتم من جيوبها فلا تحتقروها ، أرجوكم حتى يبارك الله لكم ٠٠

حمدت الله لنجاح شركتى ، ففى خلال العام الأول عرف السوق أسمى ، وتهافت العملاء على مكتبى ، وبدأت الطلبات على منتجاتى ٠٠

فجأة ، قل الانتاج ، تساءلت بينى وبين نفسى : « ماذا يريدون ؟ » ، أجورهم مرتفعة ، حياتهم آمنة ، لم أجد ثغرة تسبب التذمر ، دعوت رئيس العمال وسألته :

– لماذا أرى التذمر فى عيون العمال ؟

– لا شىء ياسعادة البيك ..

قاطعته باشارة من يدى :

– قل يابنى ، قل يامجدى ،

قال بعد أن تبددت سمات الخوف من فوق جبهته :

– يقولون عنك متكبر ، لا تشعر بهــم ، ولا تتعــرف على أسمائهم ، تعيش فى بــرج عاجى ، تضن عليهــم حتى بالتحيــة ..

هززت رأسى ، قلت فى بطء والتفكير يلف رأسى كلها :

– ظننت أننى غير ذلك طالما أجزتهم عن عملهم خير جزاء ، وفرت الاستقرار الذى يفتقده عامة الناس ، وو ..

قاطعنى الرجل قائلا :

– لا مؤاخذة يابنى ، الكلمة الطيبة لا تعادلها مئات الجنيهات..

وجدت نفسى فى حيرة بعد انصرافه ، ماذا أقول ؟ ماذا أفعل ؟ كيف أبرهن على انى مثلهم ، نشأت فى بيت مثل بيوتهم عشت العوز الذى عاشوه فى بيــوت أسرهم ، عانيت الفــاقة التى عانوها طرأت الفكرة فأنارت عقلى ، امتدت يدى الى الهاتف ..

حين جلست أمامهم تمثلت أسرتى بأفرادها الثمانيــة ، رغم زيادة عدد العمال على العشرين ، أصابنى نوع من الارتباك الخفى ، تتجه عيناى الى باب الشركة الموارب اتطلع الى مجيئه .. هو البرهان العملى المنقذ ، طلبت من رئيس العمال التعرف عليهـــم ، قطع استرسال رئيس العمال دخوله ، بحلته الزرقاء ، وحذائه المغبر

بالتراب ، أسرع أحد العمال واستوقفه ، يحاول دفعه الى الخارج قلت بصوت هادىء مطمئن :

ـ دعه يدخل ..

تبادلوا الهمسات ، سرت الهمهمات ، عيونهم ترقبه وأنا أخلى له مكانى ، وأجلسه عليه ، وضعت يدى مستندا على كتفه وقلت :

ـ أتعرفون من هذا ؟

وقبل ان يخرج من أفواههم أى تعليق يجرح أو يصيب قلت :

ـ انه أبى ..

ثم اتجهت اليهم ، وقفت بينهم وعقبت :

ـ هذا الرجل الذى ترونه أمامكم أبى ..

ضج المكتب بالضجيج ، جذبت مقعدا وجلست الى جواره ، رأيته بجانب وجهى يسأل بعينيه القلقتين ، بشفتيه الصامتتين ، قلت مجيبا على حيرته :

ـ اخوانى العمال يروننى فى برج عاجى ، متكبر ، و .. ..

تعالت أصوات بعضهم متأسفة أو محتجة :

ـ العفو ياسعادة البيه ..

ـ لا يجرؤ أحد على هذا الظن ..

ـ من يقل ذلك نقطع لسانه ..

أشرت بيـدى ، فهبط الصمت كطائرة توقفت محركاتها ، قلت :

ـ قد أكون حازما لمعاشرتى الأجـانب سـنوات طويلة ، لكن الحزم فى العمل لا يفســد قضية ، لكنى أعترف بتقصــيرى فى معايشتكم ، أعترف بهذا وأعد بانتهاء هذا التقصير اليوم ٠٠

وقف أحدهم وقال :

ـ رغم خجلنا فاننا سعدنا بلقاء الأستاذ ٠٠ ٠٠

هب أبى واقفا ، وقال ضاحكا :

ـ لا سيد ، ولا أستاذ ، أنا عامل مثلكم ، ملاحظ بالسـكة الحديد ، ابنى ليس خواجه ، انه ابن ملاحظ ســواء تكلم عـربى أو أفرنجى ٠٠

قال رئيس العمال :

ـ نعم الأصل ، هل فى نفس أى منكم شىء ٠٠

قال أحدهم بعد أن لف على زملائه بعينيه :

ـ ماذا بعد أن عرفنا على الطبيعة كل شىء ٠٠

غفلة حامد

عند المنعطف وقف حامد يلتقط أنفاســـه ، وضــع الحقيبة الضخمة بجوار قدمه اليمنى كى يخفف من أحماله ، ترك الحقيبة الأخرى كما هى مشدودة الى ظهره بشريطين من القماش السميك ، أخيرا تحررت يده اليمنى ، أخــرج منديله المحلاوى الكبير ، جفف عرق وجهه ، ورقبته ، رفع يده وجفف عــرق صلعته ، نظــر الى المنديل مبللا بالعرق والطين ومصمص شفتيه فى ابتئاس ٠٠

بضع ساعات قضاها منذ دخل به القطار الى المدينة ، بضع ساعات أشق عليه من كل أعوامه التى قضاها فى القــرية ، يشعر بفرحة لم تتم ، وأدتها تلك الساعات التى قضاها فى السير محملا بالأثقال ، طاف معظم أحياء المدينة بحثا عن حجرة تأويه ، تذكر دار الشيخ سلمان الوسيعة الخالية ، وتمنى أن يجـــدها أمامه ليلقى بأثقاله طلبا للراحة ، لعن هاتف الحرية الذى دفعه الى الرحيل الهاتف الذى سيطر عليه منذ عام عندما رحل عدد من أصدقائه ٠٠

ومرة أخرى حمل حقيبته وانطلق يفتش عن الحجرة المنشودة ، يتوقع أن يرى وجها من وجوه أصدقائه ، لم يكن هاتف الرحيل

وليد عام فقط ، وانما وليد أعوام كثيرة ، مات الوليد مع ميلاد حبه لزينب ابنة الشيخ على ، لم تكن زينب صغيرة بل كانت تكبره بعدة أعوام ، ولم تكن عذراء وانما مطلقة ، ولم تمانع فى الزواج منـــه وانما اصرار أهله على زواجه بفتاة بكر هو العقبة الوحيدة التى حالت بينه وبينها ، منذ رحلت بعد رحيل أصدقائه تحول كل شىء الى اصفاد تثقل كاهله ، شعر بهدوء الريف ، هدوء قريته ومسقط رأسه ملل مقيت ، تغريد الطيور شجو حزين ، خرير الماء فى الترعة الصغيرة صوت ناى مثقل بالجراح ، الشمس جمرة لهب ، القمر شمعة تحترق بلا دموع ، الليل غيلان سوداء تنوح بالقبور ، لعن نفسه لبقائه سجينا للأرض والدار ، أســيرا للأهل والهدوء المقيم والعادات ، انبعثت من جديد روح الوليد الذى أماته الحب ، جرت الدماء فى عروقه واكتمل نموه خلال عام واحد ، لم يطل عليه فيه صديق من أصدقائه ، ولم ير زينب حبيبته ، ظن فى بادىء الأمر أن الحب مات برحيلها ، لكن مرور الأيام أثبت خطأ ظنه فما زالت تسكن أعماقه ، صورتها تعيش تحت جفنيه ، تروح وتجىء ، تحمل الجرة ، تسوق المواشى ، تعزق الأرض ، تقوم بعمـــل الرجـــال ولا تكل ، ولا تمل ، لا تشكو ولا تتبرم .

كان حامد طول العــام يرسم ويخطط للحيــاة فى المدينــة ، تتداعى خططه وأحلامه وتسقط أمامه على أرض الطريق أشـــبه بعبرات طفل ضال ، المدينة الوسيعة تكاد تبتلعه ، بل التهمته بكل سنين عمره العشرين ، التهمت كل ما كان فى رأســه من أحلام وخطط وآمــال ، يشعر بشـــلل كامل فى كل قــواه العقليـــة والجسدية ، يكاد من فرط الاعياء يلقى بأحماله على الأرض ، ويتكور فى وسطها منتحبا كامرأة ثكلى ، لكنــه وقف على حقيقة بدت له ناصعة البياض ، انه رجل ، ولا يحق له أن يبكى ، تذكر بكاءه يوم صرخ والده فى وجهه :

ــ ابنى يتزوج مطلقة ، اذن القبر أولى به ..

ولطمت أمه خديها زاعقة :

ــ زينب ، الا يوجد بالقرية غير زينب ، تحرم على يا حـامد لو تزوجتها ، ولا تكون ابن بطنى ..

عاد والده يقول فى سخرية :

ــ طبعا ، أمالت دماغك ، عيل وضحكت عليه ..

أدرك حامد فى لحظة ، والتجول فى المدينة يكسر عظامه ، انه كان لعبة فى يديها ، وما أكثر ما لعبت به ، خصــــام وهجــــر ، تسخير فى أعمال غيطها ، تكلفه بطلبات كثيرة ، كم صرف عليها من أموال ؟ ، تطلعها الى أرضه التى سيرثها عن أبيه ، رغبتها فى أن تكون سيدة القرية كلها ، وعندما جاءها أول عابر رحلت معه ..

وجد حامد نفسه أمام محطة القطار ، سقطت الحقيبة الكبيرة من يده ، جلس واستند اليها بظهره ، تراءت له المدينـــــة فى ظل الأضواء كعملاق له أكثر من ألف ذراع ، الناس يتزاحمون كتزاحم الذباب على جيفة ملقاة على الزراعية ، الضوضاء تهدهده وتصطدم باذنيه ، القمر لا يبين سحره وجماله ، هتف مؤنبا نفسه « أى جنون فعلت ؟ ، وبأية خيبـــة سأعود ؟ ، يا فرحـــة الأب والأم والأهل ، ياشماتة الحاقدين ، ماذا دفعنى الى هذه الحماقة ؟ .. » .

ارتفع صوت الحقيقة من أعماقه ، « عد يا حامد ، عد لأبيك وأمك ، وقبل يديهما ورجليهما والتراب الذى يمشيان عليه ، عد لأرضك ودارك ، عد لتزرعهـــا وتجنى ثمـــارها ، عد ياحامد ودع المدينة لأهلها ، حبك لزينب لا طائل من الجـــرى وراءه ، العقل يناديك ، زينب لم تحبك يوما ، بل كانت تحب نفسها ، يكفى انها رحلت الى بيت زوجها ، وتركتك دون وداع .. » .

غزا صدره شوقا لأبيه وأمه لا يحتمله ، يتوسل الى السماء بعينيه ان يجد نفسه بينهما بعد أغماضة قصيرة ، وأغمض عينيه ، عنف الدقات في قلبـــه تضع أقدامه على رصيف المحطة الصغيرة ، يرحب به ناظرها :

ـ حمدا لله على السلامة ياحامد ..

صوت أمه الفرح الباكي يتسلل الى أذنيه :

ـ ألم أقل لك ياولدى ، من ترك داره قل مقداره ..

شعر بذراعين أحاطتا به في حنان جم وحب وفير :

ـ أخيرا ياحامد ، استمعت لصوت العقل ..

ـ حمدا لله يا أبى ، لقد رأيت الحقيقة بعينى رأسى ، لم يكن بامكانى رؤيتها وأنا في قلبها ..

ثم يمازح الأب زوجته :

ـ وصل ابنك الى لب الصواب ، اذبحى له فرخة يا امرأة ، أراهن أنه سيموت من الجوع ..

ـ أصبت يا أبى ..

كانت غفلة حامد قصيرة ، آفاق منها مذعورا ولم يجد حقيبته الكبيرة التى استند عليها وغفا ، هب واقفا يصرخ في الناس :

ـ حقيبتى ، سرقوا حقيبتى ، حقيبتى ..

أخذ يصرخ ، ويصرخ في كل الناس ، ولا من مهتم أو مجيب ، وفي غمرة أحزانه وصراخة ، وبحثه شعر بالحب والامتنان لشجرة الكافور التى اعتاد أن ينام في ظلها آمنا مطمئنا ، شعر نحوها بحب يشده من رأسه ، ومن حنايا صدره ، يدفعه شوق جارف لمعانقتها يفوق شوقه لأمه وأبيه ..

العدو تحت ضوء القمر

مع بداية الليل ، وقبل أن تختبىء الشمس ، الطيور تطير فى أسراب متآلفة متحابة تودع النهار فرحة مستبشرة ٠٠ لا يهنأ بالحياة الحقة غيرها ٠٠ تفرح فى استقبال الشمس وتفرح فى وداعها ، النسيم الرطب يداعب هامات الأشجار ، جذوع النخيل الباسقة فى علوها الشاهق تتمايل مع نسمات المساء ٠٠ الرجال العائدون من الحقول يسيرون فى صمت بعد عناء العمل طيلة اليوم ٠٠ الدواب من بهائم وخراف ونعاج وحمير تمشى فى تكاسل ولا يسمع فى هذا الهدوء الا أصوات الصبية وهم يتبـــادلون الحديث فرحين حول اللقاء بعد العشاء ، واللعب تحت ضوء القمر ٠٠ لا يجرؤ أحدهم فى غياب القمر على الخروج بعد آذان العشاء خشية فتك الذئب الذى يهدد العزبة منذ حين ٠٠ لم يفلح أحد فى قتله ، وما زال الرجال يتناوبون السهر والترصد للفتك به ٠٠

كانت الخالة عالية آخر من يعود الى العزبة كل مساء ٠٠ كانت تقف عند مشارف العزبة تتطلع الى آخر الممشى حتى شجرة التوت العريقة التى يؤرخ بهـا للأحـداث العظام ٠٠ كانت تتطلع متلهفة مترقبة ولا ترى شيئا الا بساطا مخضرا يمتد الى مالا نهـاية حيث

الأفق الرحب .. السماء ترقد فوق الأرض ، تحتضن الأرض السماء ولا يبين من ورائها شيء .. كل مساء وقبل تبدد ضوء النهار تقف علها تراه يطل من وراء شجرة التوت بقامتـــه المديدة ، وجســده الضخم .. وعدها فى آخر رسالة له بالحضور ، ولما لم تعثر على ضالتها المنشودة ــ ككل مســـاء ــ أدارت ظهرها منكسرة الخاطر للمشى وسارت نحو دارها .. قابلها حسين أحد شبان القرية وفوهة بندقية معلقة على كتفه مشرعة نحو الســـماء .. قال ملقيا تحيـــة المســـاء :

ــ مساء الخير ياخالة عالية ..

ــ يمسيك بالخير ياحسين .. هل النوبة عليك الليله ؟

ــ نعم يا خـــالة ..

قالت وهى تنصرف وتعطيه ظهرها :

ــ الله فى عونك ..

جلست الخالة عالية للعشاء مع زوجها وبين أولادها ، تلوك الانتظار المض مع لقيمات الزاد ، وذهنها مشغول بتأخر الأستاذ علاء ، تكره فيه عدم الوفاء بالوعد ، تنظر الى زوجها ثم تحيد عنه بنظراتها عندما يصوب اليها عينيه النافذتين .. تــود أن تقول له « فى الصباح أرسل له تلغراف » .. لكنه بما جبل عليه من صبر وجلد يرد على خواطرها الصامتة قائلا :

ــ مشاغله كثيرة .. كان الله فى عونه .. لا تقلقى لعله يأتى غدا ..

بدأت السماء الرمادية تتحول الى غلالة سوداء شفافة حيث تتبدى من خلفها زرقة صافيـــة ، وفى أقصى الشرق ظهر القمر

مستديرا مكتملا ، يرسل أشعته الفضية بين زرقة السماء والغلالة التى أخذت تنقشع شيئا فشيئا ٠٠ خيـــم الســـكون فوق عزبة شوكت بك الذى مات منذ عشرات السنين ، وتحررت العزبة مـــن ربقة الاقطاع ومازالت تحمل اســـمه مقرونا بلقب البكوية الملغى ، وستظل تحمله لعشرات السنين الأخرى تخليدا لذكراه أيا كانت ، تشهد على زمن ولى ولن يعود ، وأيضا عزبة الدمنهورى باشا المجاورة والتى تتصارع مع عزبة شـــوكت بك على الاستئثار بالعمودية ، وأيضا العديد من العزب فى هذه الناحية التى تحمل أسماء أصحابها من الاقطاعيين القدامى ٠٠ تلك الأســـماء التى يتداولهـا النـاس ويتوارثونها جيلا بعد جيل ٠٠

انحسرت الغلالة السوداء ، بدت السماء كقبـة مسجد فضية اللون موشاة بنجوم مبعثرة كحبـات مسبحة فسفورية تبرق فى الظلام ، صعد اليها عامود من الدخان الأسود يبعد عن العزبة حوالى خمسة كيلو مترات ايذانا بتحرك آخر قطـار يمر بالمنطقة ، دوى صفيره عاليا يعلن لجميع العزب والقرى السابعة والربع ، وانتهاء آخر رحلاته اليومية ٠٠ خلف وراءه رجلين ، وفى ناحية أخرى من المحطة الأستاذ علاء يمسك بيده اليسرى حقيبة جلدية صغيرة ٠٠ تطلع الأستاذ علاء الى الأرض والسماء والأشـــجار وشيع القطار بنظرات مترددة ، نقل بصره سريعا فى كل اتجاه ٠٠ تقدم فى خطوات بطيئة نحو الشرق لكنه توقف ثانية ٠٠ بدا كالغريب التـائه ٠٠ تقدم نحو الرجلين بحذر ٠٠ ألقى التحية ثم سأل :

ــ أين الطريق الى عزبة شوكت بك ؟

تقدم أحد الرجلين وأخذ يصف له الطريق :

ــ أمسك هذا الحد الذى أمامك ٠٠ سر عليه ٠٠ لا تتركه

الا عند المنحنى ستجد هناك شجرة توت كبيرة ٠٠ بعدها يبـــدأ المشى الى العزبة ٠٠

دعاه الرجل الآخر الى الاستراحة من عنـاء السفر ، وتناول الشاى فرد شاكرا ثم عقب :

ـ ما زال الوقت مبكرا ، القمر يهدينى السبيل ٠٠

سار الأستاذ علاء فوق الحد الضيق ٠٠ طافت بخياله ذكريات الماضى البعيد ٠٠ أربعون عاما مضت لم يحضر فيها الى العزبة منذ برحها ، كان فى العاشرة ، لم تطأ أقدامه هذه الأرض ولم يجد فى معين خياله أى شىء عن الطفولة والصبا ، كأن تلك الفترة طمست من ذاكرته ٠٠ كان أبوه مدرسا يعمل بالبندر ٠٠ أراد له أن يدرس حتى مراحل التعليم النهائيـة ، وقطع علاء الشـوط الطويل ٠٠ تخرج من مدرسة الحقوق ٠٠ اشتغل بالمحاماة ٠٠ تزوج وأنجب البنين والبنات ، نسى فى زحام حياته العزبة التى شاركت فرحة أسرته واحتفاءها به يوم مولده ٠٠ نسى أخته المتزوجة من ابن عمته ، ظل بعيدا يتعلل بمشاغله وأخته تزوره بين الحين والحين ، تلح عليه فى زيارتها ، انقطعت أخيرا ، أرسل لها الخطابات وكان ردها بالعتاب تارة ، والتأنيب تارة أخرى ٠٠ أعلن فى احدى رسائله رغبته فى العودة والاســـتقرار بالعزبة ، رغم معارضـــة زوجته وأولاده ٠٠ تعب من العمل ، تعب من العدو وراء المال ، تعب من اللهث وراء القضايا فى أنحاء المدينة ، ومن مدينة الى مدينة ٠٠ كسب الكثير وأضاع الكثير ٠٠ فكر أخيرا أن يستريح وقد حل محله ابنه الأكبر فى المكتب ، أخذ يبـاشر القضايا القليلة التى ترد ٠٠ كثر عـدد المشتغلين بالمهنـة ، وتفتحت أذهان الناس ، واستولى الكتبـة على معظم القضايا حتى صار الربح قليلا بالقياس الى ما مضى من حياته ٠٠

طاشت قدم الأستاذ علاء ، تزحلقت فوق حصى متبلور من الطين ، كاد يقع فى المجرى المائى الصغير لولا سرعته فى تفادى الوقوع ·· وضع الحقيبة أرضا واستند عليها ·· اعتدل وشعور بالاجهاد يتسلل الى ساقيه ·· جفف بمنديله العرق البارد الذى بلل جبهته ·· تطلع الى القمر ثم رنا الى الحد ورآه كالصراط المستقيم تعجب من طوله ·· خاطرة من الذكريات تطفو فوق السطح ·· كان يعدو وهو صبى الى المحطة لشراء بعض ما يلزم الأسرة من بقال هناك ·· ويعود كما ذهب عدوا وذيل جلبابه بين أسنانه ·· تنهد متحسرا فلم يكن جسده بهذه الضخامة ، ولم يكن يحمل فوق عظامه كل هذا اللحم والشحم ·· وتلك السمنة التى هدت قواه وملأت بدنه بالأمراض ·· تذكر داء القلب فأبطأ خطواته ، عاد الى أحلامه مستعينا بها كرفيق على قطع الطريق الطويل ··

عمر مديد يا علاء قضيته فى العدو وراء الحياة ·· المدينة واسعة لا تعرف الحدود ·· تتسع لكل ألوان البشر ولكل حسب قدراته ·· حياة دستورها العدو ·· والعدو وبعض توابل أخرى كالدهاء ، الخداع والزيف ، لولا ذلك ما نجحت واشتهرت كمحام بارع ، وما وفرت لأسرتك الحياة الطيبة والضمان للمستقبل ·· علمت أولادك ولم يبق شىء سوى أن تستريح ·· لك ايراد طيب من العمارتين يكفيك مدى الحياة ، داعب خياله خاطر رأى فيه من الطرافة ما يستأهل التفكير ·· لما لا يشتغل بالزراعة حتى لا يسأم هدوء الريف ، يشترى أرضا ويؤجر من يفلحها ، يسوق نتاجها ، يقيم مزرعة لتربية المواشى والطيور والدواجن ، يتاجر فى الحيوانات الحية ، تهافتت على ذهنه شتى المشاريع المثمرة المربحة فى أرض بكر ، فى الريف ·· هنا سيحقق أكثر مما حقق فى السنوات الماضية دون عدو ، دون زيف أو خداع ، ابتسم ·· امتلأ صدره بالهواء المنعش فحدث نفسه بصوت مرتفع :

- بعد ان أبنى الفيلا واستقر ·· أبدأ فى تنفيذ مشروعاتى ··
ضحك وهو يردد :

- ولما لا أكون عمدة ·· صاحب عزبة ·· فلتكن عزبة علاء بك ··

اتسعت ابتسامته أكثر ·· شعر بالقوة تدب فى كيانه ، تعيد اليه شبابه ·· حيثما وجد القرش وجد الشباب ·· رفع الحقيبة وتحسسها بامتنان واطمئنان ، فيها ترقد تصميمات الفيلا وعقود شراء الأرض جاهزة على التوقيع ·· اعتبر نفسه مدينا لزوج أخته عاليه الذى قام نيابة عنه بالاتفاق واعداد كل شىء ·· لن ينساه ·· سيكون الرد على صنيعه اشتغاله ناظرا لعزبة علاء بك ·· أخرجه صوت نقيق الضفادع من استغراقه مع نفسه ·· خمن انه اقترب من شجرة التوت ·· وانه سيترك الحد الضيق الى الممشى الواسع ··

هدوء طيب يتسلل الى نفسه ·· دبيب الحياة يسرى فى أوصاله ، وينتشي الدم في عروقه ·· لم يصل بعد الى مرحلة الكهولة ·· يترك عمله وهو فى الخمسين ، عز الشباب ومنتهى الرجولة ·· تذكر أخته وأولادها الذين لا يعرفهم ·· أقاربه الكثيرون ·· كثيرون منهم كانوا يزورونه فى المكتب ويدعونه للترافع فى قضاياهم ، كان يركب القطار السريع الى البندر فى الصباح ، يحضر القضايا ويباشرها ثم يعود فى قطار الظهر متملصا من دعواتهم للمرور على العزبة ، يتمتم وهو يتذكر أخته « اللعنة على الغربة » ·· تشمم فى احدى رسائلها دموعا تلومه وتتهمه بقطع صلة الرحم ، استحلفته بذكرى الأب والأب وعظامهما الراقدة فى مدافن العزبة أن يحضر ليوم واحد ولا يقال عنها مقطوعة من شجرة ·· رغم علم الجميع بفرع الشجرة السامق فى مصر ··

انقطعت رسائلها عن غضب فأرسل يطمئنها ويخبرها بعزمه الاقامة في العزبة ، أسرف فى رسم أحلامه ، أعدت وزوجها ، والعزبة كلها ما يداعب خياله العائد بعد غربة ، المهاجر بعد أوبة ، ترقبوا جميعا حضوره تسبقه شهرته وصيته ، سيرد حقوق العزبة المغتصبة ·· لن يبخس كاتب الجمعية حق أحد ، لن يسرق صراف المالية أموال الفلاحين ·· لن يدان أحدهم من لا شىء سوى أنه يبصم بأصبعه أو خاتمه ·· سيعم الخير العزبة كلها بعودة العدالة اليها ·· سيقوم بالترافع فى قضاياها المعلقة من عشرات السنين ·· حلمت نساء القرية بحصول الأستاذ علاء على العمودية واستتباب الأمن وعودة السلام ، انتشرت أحلام النساء وذاعت وتناقلتها أفواه الجميع ··

تبدد الهدوء ·· شعر الأستاذ علاء بالخوف ·· ألقى نظرة الى الوراء فرأى ظلا يتبعه ·· عض نواجذه وشد أعصـــابه حتى لا ينهار ·· رعب وتفكير مشوش ·· لحظة وتذكر أنه يمشى تحت ضوء القمر فلابد وأن يكون له ظل ·· تأكد من ظله ·· ضحك ضـحكة مشحونة بخوف حبسها فى حلقه ·· تخيل رغم خـوفه الفرحة الغامرة التى ستلقاه بها أخته ·· الفرحة التى ستخرج عن صدرها وتنهمر للتعبير عنها دموعها الحارة ·· يحيط به أولادها ويقبلون يده ·· يمتلىء البيت بالحركة والنشاط ·· الضيف عزيز وله حقوق الضيافة ، يتصاعد دخان الفرن الى السماء فيلوث صفاءها كعامود دخان القطار الذى رحل بلا عودة منذ نصف ساعة أو يزيد ، يفقد بعض الدجاج حياته وتتطاير قطرات دمه لأجل خاطر الضيف العزيز ، تردد مئات الأفواه اســـمه ·· ينتقل الخبر أسرع من الوسائل التليفزيونية والبرقية ، تمتلىء الدار بأهل العزبة ·· أدار كل ذلك فى رأسه ابعادا للخوف لكن دون جدوى ، شعور بالتيه يدفع به الى التراجع ·· يحيط به ضياع لم يألفه ·· الخوف يزيح من رأسه كل الأحلام ؛ يلوم نفســه على المجىء ·· يتمنى

العودة من حيث جاء ، لكن القطار لا جدوى من انتظاره ٠٠ هو العراء والخوف وضوء القمر ومن بعيد يلمح أشجار النخيل الباسقة فارهة كأشباح فى الليل ٠٠

دوى فى الهواء عواء ذئب شرس ٠٠ توقف علاء رغما عنه ٠٠ دار حول نفسه ٠٠ فرت الدماء الباقية من عروقه ، ولاذت بالقلب الذى ارتجف وأخذ يتضخم ويتضخم ٠٠ تبددت كل قواه فلم يستطع التنفس أو التحرك ٠٠ دوى عواء الذئب مرة أخرى ، وأعقبه عيار نارى مزق السكون ٠٠ رأى الأستاذ علاء آماله تتهاوى مع النجوم ، والنجوم تتهاوى كالشهب ٠٠ جمع كل كيانه فى محاولة مستميتة لانقاذ ما يمكن انقاذه ٠٠ استطاع بعد مشقة بالغة اطلاق قدميه من التصاقهما بالأرض ٠٠ عدا كما لم يعد فى حياته ٠٠ وعواء الذئب يملأ كل أسماعه ، يسد عليه كل منافذ النجاة ، أدرك أنها النهاية ، انه مقتول لا محالة ٠٠ دوى عيار آخر ، توقف ، تهالك ، سقط على ظهره ٠٠ تألق قميصه الحريرى الأبيض تحت ضوء القمر ، اندفعت الحقيبة مع تيار الماء الضعيف نحو الترعة ٠٠

أخذ حسين طريقه نحو العزبة وضوء القمر يفترش الأرض ٠٠ ارتفع صوت صياحه ليخرج العزبة عن آخرها :

– قتلت الديب ياولاد ٠٠ قتلت الديب ياولاد ٠٠

وبدأ شتاء الأحزان

كانت فرحة فى المرة الأولى ، فلم يكن قد مر على زواجها أكثر من عام ، فرحت بأن تكون الى جوار أمها مهملة بعض الشىء بيتها وزوجها ، فالحدث حدث ميلاد ، والأم فى حاجة الى رعاية ٠٠ لقمة حلوة دسمة ، هدمة نظيفة ، طبق حساء دافىء ، كوب حلبة مطحونة بالسمن البلدى ٠٠ فرحت كثيرا وهى تنصت الى عبارات الأطراء ٠٠

ـ ربنا يعوض عليك ٠٠ قمت بالواجب وأكثر ٠٠

ولم يصل الى أذنيها بالطبع ما قيل فيما بعد :

من كان أولى بالانجاب الأم أم ابنتها العروس ؟؟

وتجىء علامة الاستفهام التى تعشش فى الأدمغة بعد شهر أو شهرين من الزواج :

ـ « ما السر فى عدم حملها حتى الآن ؟؟ » ٠

وبعد مضى التسعة أشهر يتحور السؤال الى :

ـ ترى من المسئول عن الانجاب ٠٠ هو أم هى ؟؟ » ٠٠

ليس السر بمنـأى عن الغـرباء الذين ما زالوا حتى الآن يتخبطون بين شتى التكهنات ·· فالأقرباء يعرفون أن عروستهم التى زفت منذ عام أو أقل قليلا حملت من زوجها أكثر من مرة ، ولكنها أصابها الاجهاض فى كل مرة ·· بعد الزواج بشهرين صار ذهابها الى طبيب أمراض النساء أمرا دوريا ، وتكلف الزوج الكثير من النفقات ·

كانت فرحة فى المرة الأولى ولم يكن لفرحتها عـدو يؤيدها لأنها على يقين من قدرتها على الانجاب فى مستقبل الأيام ·· وبعد أن اطمأنت الى زوجها ، عرفت فيه الزوج الطيب القلب ·· العف اللسان ·· الذى لا يزيد عن القول بأن « كل شىء بأمر الله » ، أو (لا يملك الانسان أى شىء فى الميلاد أو الموت) لقد ثبت رغم انه ككل الشباب لا يؤدى فروض الايمان المطلوبة الا انه يؤمن الايمان كله بالله ، بالحياة بالموت ·· أسعدها كثيرا الاحساس بالأمان الى جانبه فلم يأبه لما قيل حوله من أقاويل ، ولم يهتم بتبرم أسرته لعدم انجاب زوجته الطفل الذى يعول عليه فى ادخال البهجة على الجميع ·· تذكر الآن فرحتها وهى تقوم على رعاية أمها وهى تضع طفلها ، الآن تتذكر كلمات المجاملة التى قيلت وما هى بمجاملة وانما هى خناجر تمزق الصدر والقلب ·· (عقبـال عوضـك يا حبيبتى) تتلفظ بهذه الكلمات كل زائرة للأم الوالدة أما هى فترى فى هذه الكلمات وجهين ·· احدهما حسن والآخر قبيح ·

ترى ما الموقف هذه المرة ؟ لقد دخلت العام الرابع بعد زواجها ولم يشأ الله ان يمنحها قرة عين مثل أمها التى برهنت رغم الواقع المعاش انها ما زالت ولود ·· تذكر مرات الاجهاض التى أصابتها والتى فاقت العشرين ، سئمت الذهاب الى الأطباء ، تعبت من تناول الأدوية ، عرفت بتبرم زوجها من كثرة الذهاب الى الأطباء ، علاوة

على تكبد نفقـــات كونت جـزءا ليس بالقليـل من الدخـل كل شهر ..

وجاء مساء فوجئت فيه بأبيهـــا يأتى فى حالة سيئة من الاكتئاب .. لم يكن زوجها موجودا ، فأتيحت له الفرصة ليعبر عما يجول بنفسه من ثورة وغضب .. أنصبت كل الاتهامات على أمها لاهمالها اياه ، وأعلن بغيته الزواج بأخرى تريحه وتسعده ، وتهتم بأمره ..

وحين جاء زوجها لم يخجل حماه من اعلان ذات الموضـــوع أمامه ، وبين استياء الزوج من حمـاه ، والغضب الذى تمور به أعماقه ، والحرص على العلاقات الأسرية أخذ يطيب خاطره ببضع كلمات ..

وفى هذا المساء بالذات ، وبعد انصراف والدها .. أحاطت الهواجس بأحاسيسها احاطة السوار بالمعصم .. دار فى خلدها سؤال حيوى .. ماذا يريد أبوها من أمها ؟ وما سر غضبه وتبرمه ؟ وماذا ينقصه لكى يندفع هكذا للتفكير فى الزواج ؟ ، وما موقف زوجها بعد ان سمع مثل هذا الكلام من أبيها ؟ ..

تناولا العشاء ـ هي وزوجها ـ تناولا الشاى ، وحين دلفا الى الفراش قالت :

ـ أراك وقـــد تجهم وجهـك بعـد انصراف أبى .. ترى ما السبب ؟

قال كعادته :

ـ لا شيء ..

قالت في اصرار :

ـ اننى أحس بك ، وأعرف أن هناك أشياء وأشياء ..

قال فى اقتضاب :

ـ ما دمت تعرفين فلم السؤال ؟

قالت :

ـ لا أعرف بالتحديد هل ضايقك أبى ؟

هنا أراد أن يثور ، وأن يحطم كل الأواصر ، وأن يهدم كل جدران الصمت التى أحاطت به منذ تزوجـا ، وفشلا فى تحقيق حلم كل بيت .. لكن فاته أن بقلبه ايمانا غريبا ، ايمان كبله طيلة السنوات عن حق طبيعى يجيزه له المجتمع والدين ، فالمجتمع يقر بأن يتزوج ثانية ليجد امتداده الطبيعى ، لكن ايمانه بأن الحياة والموت بيـد الله هو الوازع الوحيـد الذى أردعه ويردعه حتى لحظته .. وحين ألقت السؤال مرة أخرى ألم به ازدواج فكرى .. فكرة تدفعه الى الرد باللسان ، وفكرة تدفعه الى اسقاط الرد من رأسه الى جوفه ، فقال محاولا الفرار من المواجهة التى لا يريدها ، وهو يئن تحت وطأة ازدواج التفكير :

ـ ولم أتضايق ؟

(ـ كلاهما أبوك وأمـك ليس لديهمـا أية ذرة من الخجـل والحياء) .

ـ لأنه يرغب فى الزواج ..

ـ لا يملك القدرة على تكاليف الزواج ..

(ـ أليس من الأجدر أن أفكر أنا فى الزواج .. يضم بيت أبيك الزوجة والبنين والبنات أما أنا فمحروم من الذرية .. ألا ترين فى موقف أبيك جحودا بالنعمة ؟) ..

ثم سألته السؤال الذى يلح عليها منذ كانت فى بيت أسرتها كلما حملت أمها وأزف وقت ميـلاد الطفل ·· السؤال الذى لم تستطع مواجهة نفسها بالاجابة عليه :

ـ ما السر فى أن أبى لا يفكر فى الزواج الا مع كل حمل واقتراب موعد الوضع ؟ أجبنى بصراحة ··

قال متهربا من الاجابة :

ـ الله أعلم ··

قالت فى اصرار ضايقه :

ـ انت من الملابسات وبخبرتك تعرف ·· أرجوك أجبنى ··

قال فى مواربة :

ـ ربما لا يخامره الاحساس بكثرة العيال الا عند ادراكه بأن طفلا آخر فى الطريق ··

(ـ أبوك رجل تتحكم فيه شـهواته ·· الحمل يحرمه من متعته ، ويصيبه الضيق والتبرم ، لى الله ·· اننى منذ تزوجتك أعيش حياة غير طبيعية ·· كلما بدت عليك تباشير حمل يحظر على الاقتراب منك أسبوعين ·· أو ثلاثة ·· أو أربعة ·· وتأتى النتيجة فى النهـاية بالفشل ·· هو لا يتحمل حرمان مؤقت تأتى ثمارة مفرحة ·· حقا لى الله) ··

قالت فى شرود :

ـ اعذرنى اذا كنت قد ضايقتك بأسئلتى ··

ـ هونى عليك ··

(ـ اننى مندهش حقا من تبلد الاحساس ·· كيف يجرؤ حماى على البوح أمامى برغبته فى الزواج لحرمان مؤقت ·· الا

يحس بحرماني الذى كم طال أمده ·· الا يتذكر حرماني الذى امتد فى مرتين أو ثلاثة الى شهور ثم أيضا حدث الاجهاض) ··

– حقيقة انت ملاك ··

– لا يوجد فوق الأرض ملائكة ··

وقبل أن يدلف الى دولة النوم قالت :

– طبعا لن تمانع فى أن أكون بجوار أمى حتى الاحتفال بمرور أسبوع على الميلاد ··

وهنا طردهما النوم من دولته حين قال فى غضب :

– وأخوتك ··

قالت :

– فى المدارس ·· وأختى الكبرى فى عملها ··

قال :

– يمكنهم التفرغ ··

ثم أردف فى تهكم ظاهر :

– احتفالا بالمولود الجديد ··

– انها أمى ، وينبغى أن أكون بجوارها حتى لا تحس ··

قال فى صراخ ودون اسقاط :

– تحس ·· تقولين تحس ·· يؤسفنى أن أقول ان الاحساس معدوم بالمرة ·· لو كان لديهما احساس لحملا معك همومك وأحزانك لعدم انجابك حتى الآن ، ولصارت تلك المتعة التى تنفخ البطن لديهما شيئا مقيتا ·· حقا لو أحسا بحرمانك لأصابهما العقم ··

وألم به طيف الماضى فقال :

ـ هل تذكرين ما حدث بعد زواجنا ؟

ـ ماذا حدث ؟

ـ أقول بصراحة أنا فى مسيس الحاجة اليها الآن ٠٠ لم يمض الا تسعة أشهر ووضعت أمك وليدها ٠٠

ـ ماذا يعنى هذا ؟

ـ يعنى انها كانت فى سباق معك ٠٠ أرادت الفوز عليك ٠٠ الأم تفوز على ابنتها العروس فى مباراة الانجاب ٠٠
وبعد هذا التهكم قال فى جدية :

ـ لقد ثبت بالبرهان نبل احساس خالتك التى منعت نفسها عن الانجاب بعد زواج ابنتها ٠٠ وأذكر انك نفسك قلت انهـــا أجهضت نفسها أكثر من مرة ٠٠

ثم نظر اليها وهو يستند بكوعه على الوسادة :

ـ هل فهمت النتائج المؤلمة للتجرد من الاحساس ؟

كان وجهها متوردا بالغضب الذى لم تستطع كبته فقالت فى صوت عال :

ـ لا أفهم ولا أريد أن أفهم سوى شيئا واحدا ٠٠ انك تكره والدى ٠٠

قال ملامسا خدها المتورد بالثورة :

ـ لا يا حلوة ٠٠ أنا لا أكره أبدا ٠٠ فقط أسقط من عينى ٠٠

ـ يعنى ت ٠٠ ت ٠٠

ـ يعنى أى شىء تقدرين على فهمه ٠٠ وفى الحال الراهن أقول لك حذار أن تكونى أكثر من مجاملة ، زيارة كأى زيارة ٠٠

واستلقى على ظهره محدقا فى سقف الحجرة الغارق فى الظلام الدامس ، يستمع الى نهنهاتها الخافتة ·· أحاط به وازعه وأخـذ يؤنبه ·· دار الصراع بين شـتى الأفكار والحساسات ، وانتهى المطاف بأن ما حدث كان ينبغى أن يحدث فى المرة الأولى ·· تذكر فرحتها وحرصه على عدم اغتيالها ·· كان يحدوه أمل أن تنتقل الفرحة الى بيته فى وقت قريب ·· ولكن بعد مرور أربع سنوات ساءه كثيرا أن تكون زوجته هـذه المرة غير مدركة حقـائق الحياة الخاصة بعد أن عاشرته ، واقتحمت مجال الحياة وخاضت تجاربها برفقته ·· علمها الكثير من خبرته ·· وحين استقر الوازع على أنه لم يخطىء ·· قال فى صوت حاول أن يكون رقيقا :

ـ كفى بكاء لكى ننام ··

قال من خلال نهنهاتها وفى شبه اقتناع بما قال :

ـ أما زلت تحبنى ؟

قال :

ـ اذا كان الحب كلمة فاننى ـ كما قلت مرارا ـ لا أقولها ··

ـ علمتنى ان الحب معنى ··

ـ وهل نقص المعنى ؟

ـ لم ينقص ··

ـ هذا ادعى لاطمئنانك ··

ـ بعد كل ما حدث الليلة ··

ـ ردد فى هدوء أكثر من مرة :

ـ بعد كل ما حدث الليلة وغير الليلة ··

قالت وفي رنة صوتها نذر خوف وقشعريرة من الأيام المقبلة :
ـ أشعر بالخجل لكون هذا حال أسرتي ·· هلا صفحت عني لكي أهدأ ، وأنام ·· ؟

شعرت ببرودة شفتيه وهو يمنحها قبلة كل ليلة ، أدركت بدء شتاء الأحزان الذى كانت تخشى قدومه ·· وبعد أن قبلها تمنى لها نوما طيبا رغم يقينه بعقم هذه الأمنية ··

شاهد على قبر الماضى

وقفت فى خشوع أمام القبر ، بعد انصراف كل المشيعين ، الظلام يوشك ان يســـود قبة السماء ، تعلقت عيناى باللوحة الرخامية ، جلوت التراب بمنديلى المبلل بالدموع ، حدقت ذاهلا ، ما هذا الذى أقرأ ؟ ، انه يخالف ما اعتاد عليه الناس ، آية من القرآن الكريم ، اسم صاحب المقبرة ، تاريـخ سـقوطه فى هوة العدم هى بالتأكيد كلمات أبى ، فقد شيدت المقبرة قبل وفاته ، وكان أول ساكن لها ، عرفت أبى رغم انى لم آره ، التصق اليتم باسمى سنوات طفولتى وصباى ، عانيت منه فى حلبة اللعب ، وبين الأقارب والأصدقاء ، وكان فى وقت آخر « كارت بلانش » يحمينى من ايذاء أخوتى وعقابهم ، وقد تناوبوا الاشراف على الحياة فى بيتنا ، أنا وأمى ، وحين يعلن أحدهم ثورته على تضمنى أمى الى صدرها فى حنان قائلة :

ـ كفى التأنيب ، لا تكونوا قساة مثل أبيكم ..

تجمعنا الخلوة أنا وأمى ، أجرجرها فى الحديث عن أبى ،

وعن حجرة العقاب التى لم أجرؤ على دخولها علانية أو خلسة ، احتراما لشعورها :

ـ كان أبوك يا جمال ٠٠

يستغرقها الحديث عنه ، وعن قسوته فى تربية أخوتى . عرفت انه لم يكن يؤنب ، بل يضرب ، وبقسوة ، يحبس المعاقب ، يمنع عنه الطعام والشراب حتى يقر بالخطأ ، ويقسم على عدم تكراره ، ومع كل عقاب لأحد أخوتى يلقى يمين الطلاق فى وجه أمى ان هى طاوعت قلبها ورأفت بحال المعاقب ، سدت رمقه ، أو روت عطشه ٠٠

حجرة العقاب ، هى الحجرة المغلقة دوما ، تتحدث عنها أمى بكثير من الرهبة ، وكثير من الأسى والحزن ، كلما جاء الحديث عنها تذكرت أخى الذى لم أره ، حسين ، كان حسين فى ريعان الشباب ، ضبطه أبى متلبسا بتدخين سيجارة ، اقتاده الى الحجرة ، وبعد العلقة الساخنة تركه فريسة الصراخ والبكاء ، ظل يصرخ ويبكى ، وحين كف عن صراخه وبكائه تبين انه كتم بنفسه أنفاسه ٠٠

أقول ثائرا :

ـ انها جريمة يا أمى ، ماذا فعلت ازاءها ؟ كان يجب ان تتركى البيت و ٠٠ ٠٠

وتهز رأسها بالنفى قائلة :

ـ أترك البيت ٠٠

ترنو الى صورة حسين وتتنهد قائلة :

ـ أيه يا ولدى ، زماننا غير زمانكم ، ما جدوى ترك البيت ، كان جدك سيعيدنى ، ولأبيك أن يذلنى ، عشرون عاما يا جمال لم أترك فيها البيت مرة واحدة ٠٠

ـ كان أبى قاسيا جدا يا أمى ؟

ـ لا يا جمال ٠٠ لم يكن قاسيا طول الوقت ٠٠

يتخلل حديثنا التثاؤب ، ثم نفترق كل الى مرقده ، ويطوينا النعاس تبرر لى الأحلام عدم زواجي الى الآن ، لن أجد فى الحياة امرأة مثل أمى ، تفنى عمرها فى كنف رجل ، تحتمل قسوته ، تتقبل جبروته ، تحافظ على بيتها ، ولا كرامة لها الا فيه ٠٠

أخى محمود ليس فيه شيء من أبى ، تسوسه زوجته ، وتسيره حسب رغباتها ، يوم تركت البيت مغضبة ، صحبنى معه لاستعادتها ، رأيته يستجدى غفرانها ، يحمل نفسه وزر أخطاء لم يرتكبها ، يقدم فروض الولاء والطاعة وهى تتمنع ، تسحق كرامته ، ورجولته ، تطرقع قطعة اللادن بين شفتيها غير عابئة ، لا يهمها بيت أفنى نصف عمره فى تأسيسه ، ولا طفل ما زال يتعثر فى خطواته الأولى ، كدت أصرخ فيه :

ـ طلقها ٠٠ طلقها ٠٠

لكنى آثرت الصمت ، فلا يعنينى أمرهما ، تحت راية الحب المضللة تزوجا ، وسرعان ما انقلبت الأحوال ، لم يعد محمود يستطيع الخروج من دائرة الذل التى أحكمتها حوله ، لك الله يا أبى ، كنت رجلا بحق ٠٠

كانت هناك أسرة قبل موته ، وما ان مات ، تفرق الشمل ، ترك لى الحبل على الغارب ، اندفعت وراء شبابى ، أمتعه ، وكأنى أمتع شباب أخوتى العشرة ، وأمى بين الحين والآخر توبخنى :

ـ لو كان حيا لدق عنقك ، لعلمك الأدب والفضيلة ٠٠

أقول ساخرا :

ـ لو كان ..

بعد كل سـخرية منه ، يطاردنى شبحه ، أغرق نفسى فى زجاجة خمر ، أو فى لعب الورق ، أو فى أحضان امرأة ، منذ وعيت وأنا أحاول الفكاك من مطاردته ، لكنه لا يكل ولا يتعب ..

عندما كبرت ، وحين تأوى أمى الى فراشها ، أتسـلل من البيت ، فسنة الحياة عندى لهو ومرح ، والعمر قصير ، لا يطيله نوم ، ولا يقصره سهر ..

وجاءت تلك الليلة ، غادرت البيت ثملا ، أمى عند خالتى وستبيت ليلتها هناك ، البيت لى وحدى ، شعرت بالسـعادة ، بالحرية ، الليلة ليلتى دون الصحاب ، التقيت بها متسكعة تبحث عن مأوى ، كلهن كذلك ـ باحثات عن مأوى ـ سقطت عليها كالطير الجارح ، اقتدتها الى البيت ، سعيدا لن يقاسمنى الغنيمة أحد ، فتحت البـاب ، دعوتها .. كممت فمها براحة يدى ، وصوت أمى يأتينى من حجرتها :

ـ هل عدت يا جمال ؟

ـ نعم يا أمى ، متى جئت ؟

ـ أوصلنى زوج خالتك بسـيارته ، اذهب الى فراشـك يا حبيبى ..

ـ أمرك يا أمى ..

هممت باقتياد المرأة الى حجرتى ، خفت أن تصل أسماع أمى همهماتنا ، أمى التى يوقظها صوت ارتطام صراصير المطبخ الأوانى ، أو دغدغة فأر لكسرة خبز جافة ، أحيانا توقظها حشرجة أنفاسى ، أجدها الى جوار رأسى تؤنبنى :

ـ الا تكف عن الهباب الذى تتعاطاه ، صدرك يئز أيقظنى ..

تذكر محاسن أبى وتعود الى فراشها ، امتلكتنى الحيرة ، منيت نفسى بليلة ، هل أدعهـــا تفلت منى ، هبطت الفكرة على رأسى كالقضاء والقدر ، فلأذهب بغنيمتى الى حجرة العقاب ، هى أنأى حجرة عن أذنى أمى الحساستين تسللت والمرأة بعد أن خلعت حذاءها ، وجدت المفتاح حيث تركه أبى ، ومن بعده لم يلمســه أحد ، دلفت الى الداخل والمرأة فى أثرى ، تحسست الحائط ، عثرت على مفتاح النور ، انبعث ضوء باهت من السقف ، ملأ الحجرة بجو اسطورى ، تجولت عيناى ، السقف المغبش بالتراب ، الجدران الكئيبة اللون ، محتويات الحجرة بسيطة ، سرير لفرد واحـد ، كرسى قديم من الخيزران ، خيزرانه ، مرتكنة على الجدار ، سوط سودانى ملتو على الحائط كحية رقطاء ، الجو يتسلل الى نفسى باسطوريته ، يمتزج بروحى ، الجدران العارية كجسد حى ، بها خطوط غريبـة لولا القدم لرأيت الدم ينزف منها ، أبى يضربها بسوطه ، دوى فى أذنى صوت ، صوته .. :

ـ جميل جدا يا فأر ، لم يعد فى البيت قط ..

تلفت حولى أبحث ، هزتنى المرأة :

ـ ما بك ؟

الصوت يملأ أسماعى :

ـ يظننى ميت ..

حبست صرخة براحة يدى ، ضمتنى المرأة الى صدرها :

ـ انك ترتعش ..

ـ ألا تسمعين ؟

بعد شهقة دلال ، وهى تتجرد من ملابسها :

– من يا روحى ؟

– أبى ··

– دعنا منه وحياته ··

– انه ميت ··

– الله يرحمه ··

··········

« كان أبوك يا ولدى ، رحمه الله ، يقول دائما ليس هناك سوى الحق ، والباطل ، الحق خير ، جمال ، فضيلة ، والباطل شر ، قبح ، رذيلة ، هذا بين وهذا بين ، شب أخواتك زهرات فى المجتمع ، الفضـــل يرجع اليه لم يحد عن الصراط المستقيم غير حسين – رحمه الله – لولا مرض أبيك ، لما كان ما كان ، لكنه قدر ومكتوب ، انت مثله ، أدعو الله أن يهديك » ··

خلعت عنى ملابسى ، أجلستنى فوق السرير ، قمت خائفا والغبار يتطاير ويملأ الحجرة :

– التراب ، التراب ··

تصاعدت رائحته الخانقة من الملاءة المغبرة ، وهى تنفضها ، كأننا فى قبر ، بدنى يرتعش ، أحاول طرد الخيالات المتراقصة أمام عينى ، أراه يروح ويجىء ، والسوط فى يده ··

– مات قبل أن أولد ، أقصد ، ولدت بعد أن مات ··

انشقت الجدران عن صوته :

– الملعون يظننى ميتا ··

جذبتنى المرأة الى السرير ، دست وجهى بين نهديها :
ــ يبدو أنك شربت كثيرا ..
ــ زجاجة واحدة ..

أخــذت تربت على رأسى ، تقص على حياتها ، أقص عليهــا حياتى ، أبى الذى لم أره ، غصنا مع الأموات ، أبى وأخى ، أمها وأبوها ، جدى وخالى ، أختها وعمها ، أثرثر بما لا أفقه ، تحاول ايقاظ أعضائى المرتخية ، أتحدث مع أبى :

ــ سامحنى يا أبى .. آخر مرة ..

ــ وما سبق ؟

ــ ندمت عليه ..

ــ وما يحدث الآن ..

بريق عينيه فى عينى ، جبهته المجعدة تحتوى جبهتى ، شفتاه الغليظتان تتقمصان شفتاى ، ذراعه يمسك بالكرباج ، بكل القسوة تنهال الضربات فوق الجسد الممدد ، ارتفع الصراخ ، انفتح الباب عن أمى صارخة :

ــ مجــرم .. مجــرم ..

تبكى ، تلطم وجنتيها ، تمزق ثوبها ، تسقط فوق الأرض ، اندفع نحوها :

ــ أمى .. أمى ..

تسح عيناى الدموع الغزيرة ، تلف المرأة جسدها الدامى ، تساعدنى فى نقل أمى الى فراشها ، أبكى ، آخر على الأرض كامرأة ثكلى ..

« أنتم يا من تعرفونني ، ويا من لا تعرفونني ، حذار من نبش قبري بالأظافر فأنا أعرفكم جميعا » ، هذه كلماتك يا أبي ، ليتني رأيتها من قبل ، كلمات لها دوي هائل ، أدق اللوحة بيدي ، بحجر ، رخامها صلد ، لا جدوى ..

ارتعبت ويد تمسك بكتفي ، تلفت وجسدي يذوب ويذوب ، وجدتها ، ألقت بنفسها بين ذراعي ، مسحت دموعي ، بحلقت في وجهها ، قلت مذعورا :

ـ انت ؟ ، لماذا جئت ؟ أتحبين القسوة ؟

قالت وهي تمسح دمعتها :

ـ لا أظنك قاسيا طول الوقت ..

زهر فى الحديقة

كأى انسان كنت ــ وما زلت ــ أعيش ‥ تقوم أعضاء جسدى بوظائفها العادية آكل ، وأتنفس وأدثر جسدى بالملابس ، أضحك ، وأبكى ، أمرض وأشفى ، أحب ، وأبغض ، أدنو ، وأتباعد ، أنام ، وأستيقظ ، أفكر وأحس ‥

تحولت حياتى الى جحيم عندما كبرت ‥ خيالى ، أجل كنت انسانا خياليا ‥ لزمتنى هذه الصفة نتيجة لما كنت أصبو اليه ، ويداعبنى باستمرار فى أحلامى ، المجد ‥ الشهرة ‥ المال ‥ وهم السعادة ، وكان من نتيجة خيالى ان نقمت على حياتى فى فترة عصيبة من عمرى ، وأنا فى الثامنة عشرة تقريبا ‥ نقمت على أهلى وأسرتى ، نقمت على خلانى ، نقمت على وجودى ذاته ‥

وحدى بدأت أعيش ‥ أذهب الى العمل ثم أغادره لألقى بنفسى طوعا لرغباتى ‥ أذهب الى أى مكان ييسر لى قضاء وقت طيب بعيدا عن الناس ‥ كل الناس ، ساقتنى الأقدار ذات يوم الى حديقة الحيوان ، وكان يوم ثلاثاء ، كانت الحديقة تكاد تكون

قفرا من الرواد ، عدد ضئيل من العشاق يحتلون بعض المناضد فى جزيرة الشـاى ٠٠ بعض الأطفـال من أبناء الأثرياء ــ هكذا دل عليهم حالهم ــ ينعمون بحريتهم ، يلعبـون ويلهـون فى مرح وسرور ٠٠

لعل أحد يتساءل كما كنت أسأل نفسى دوما « لماذا أركن الى الوحدة والانعزال ؟ » وأجيب بأنى فى وحدتى كنت أترك العنان لخيالى ٠٠ أتركه يسبح اينما شاء ٠٠ محلقا فى أجواز الفضاء ٠٠ مرتادا أعماق البحار والمحيطات ، سابحا فى طبقات الجو ، أشبه بطائر لا يمل التحليق ، يفتش فى المعقول واللا معقول ٠٠

كنت أتمشى فى طرقات الحديقة ، وخيالى يحلق ويرفرف حولى أحيـانا ، ثم يتركنى أحيـانا أخرى ٠٠ وقفت أحملق فى حارس السبع والنمر ٠٠ وهو يقدم لهما طعام الغداء ٠٠ تقدم بالطعام الى السبع فزأر زئيرا عاليا امتنانا وشكرا ٠٠ وأخذ النمر يدور ويلف داخل قفصـه الصغير الذى شيد خصيصا ليكون قيدا على حريته ٠٠ الحرية٠٠وتساءلت : « ماذا يحدث لو منحت لتلك الحيوانات حريتها داخل الحديقة ؟ » فكرة رائعة ٠٠

لم أذهب فى حياتى الى الأدغال ، ولم أعش دقيقة واحدة فى غابة من غابات السودان مثلا ، أو أحراش أوغندا ، ترك الحارس مهمته فى اطعام السبع والنمر وانصرف ٠٠ دنوت من قفص السبع أشـهده وهو يتنـاول طعـامه ٠٠ كم هو جميل ؟ كم هو رائع الحسن ٠٠ كم هو لطيف ٠٠ لماذا اذن سجنوه خلف القضبان ؟ ٠٠

عرفت من حكايات جدتى ، ومن كتب القراءة المدرسية ان الوحوش لا تضر بالانسـان ما دامت معدتها مليئة بالطعام ٠٠ الوحش لا يضر أحدا الا اذا جاع ، فالجوع كافر ٠٠ اذن لو اشبعناه

لن يضر أحدا ٠٠ لن يسيء استخدام حريته ٠٠ لقد انتهى من تناول طعامه ، على أن أطلق سراحه وأجرب ٠٠ فلن يضر أحدا ٠ ومعدته مليئة بالطعـام الا اذا كان حارسـه قد حجز نصيبا له ولأسرته ، وكمية أخرى يبيعها للجيران ، وسأعيـده ـ الوحش ـ الى القفص قبل ان يشعر بالجوع مرة أخرى ، سأراه وهو يزاول حريته ٠٠

راقت لخيالى الفكرة ، تحايلت حتى فتحت الزنزانة ٠٠ خرج السبع مهرولا ، وتبعـه النمـر ٠٠ اعتلى خيالى الجنـون ٠٠ كل الحيوانات تناولت غذاءها ، كلهـا يجب ان تنعم بحريتها حتى تتنفس نسيم الحرية ، ولو لمرة واحدة فى العمر ٠٠ فلها سنوات طوال وهى حبيسة أقفاصها ٠ ولها سنوات كادت تصيب أقدامها بالشلل من كثرة الرقاد ، فالزنزانة ضيقة ٠٠ وأكثر ضيقا على من فقد حريته ٠٠

كل الحيوانات تركت زنزاناتهـا وخرجت ، تجرى وتلهو وتلعب حرة طليقة ٠٠ والسبع يتجول فى الحديقة أشبه بملك ٠٠ لم تأت تسميته « ملك الغابة » عبثا ، فهو ملك بما يملك من قوة ومن جمال ، ومن حسن ومن هيبة ٠٠

القرود تتقافز من شـجرة الى شجرة ٠٠ والحمار الوحشى يبرطع قاطعا الحديقة بالطول والعرض ، والفيل يتهادى مداعبا أوراق الأشجار بخرطومه ، والغزال يتقافز فى خفة ورشـاقة ، والطاووس يتخايل فى طيرانه من مكان الى مكان ٠٠ والدب يهرول بصوت يدوى فى الحديقة فى سرور بالغ ٠٠

دوى فى الهواء صوت صفارات الحراس ٠٠ وما ان انطلقت الصفارات حتى ساد الحديقة كلها ذعر مميت ، ورعب قاتل ٠٠

هاجت الحيوانات التى خرجت لتوها لتشم أريج الحرية ٠٠ وبدأ بعضها يبغى الفرار ، وبعضهـــا يبغى الاختفاء ، وبعضها يبغى استعمال القوة ، وبعضها يبغى التخلص من الحراس ٠٠ وبدأت بوادر معركة كبرى ، الحراس يمسكون بنادقهم ، والحيوانات تكشر عن أنيابها ، وتتباعد ٠٠ يبدو انها لا تريد الدخول فى معركة ٠٠ لكن الحراس فى اصرار وعناد يبغون العراك ٠٠

قادنى السبع وأنا أسير الى جواره ، وفى حمايته ، الى جزيرة الشاى ٠٠ رآنا العشاق نسير جنبا الى جنب ٠٠ لم يصدق أحدهم عينيه ٠٠ كانت دهشتهم أكبر من أن تتحملها نظراتهم ، أو انفراج شفاههم ، كانت أكبر من الخوف الذى دب فى قلوبهم ، والذعر الذى غشى صدورهم ، ضحك بعضهم وقال :

ـ يبدو أنه سبع مستأنس ٠

كانت ضحكته صفراء باهتة ، ردت عليه محبوبته هاربة الى حضن الخيال :

ـ قد يكون قطا كالذى رأيناه فى فيلم ٠٠

وعبثا حاولت تذكر اسم الفيلم ٠٠

توقف حبيبها وقال وهو يتلفت حوله وأوصاله كلها ترتعد ، ينظر الى أى مكان يمكن أن يلجأ اليه محتميا به :

ـ لكن ما هذه الزوبعة ؟ صفارات الحراس ٠٠ و ٠٠

وقبل أن يتم كلامه لم يجد أمامه سوى البحيرة الصـــغيرة فالقى بنفسه فيها ، حبيب آخر ترك حبيبته وتســلق شجرة من من أشجار الجزيرة ٠٠ الرجال معظمهم أصابهم الجبن ، وسيطر عليهم الخوف والرعب ٠٠ أما النســاء فقد شعرن للوهلة الأولى

بالخوف ، ثم لم يجدن كما بدا مفرا من السيطرة على الأعصاب ، فبدون فى لطفهن المعهود ، ورقتهن التى تلين الحديد ، وتقد من ناحيتنا ، بعضهن مسحن على ظهر السبع فى حنان ، وبعضهن سرن وراءنا مبتسمات ، وكن ينظرن الى فى تساؤل كأنهن يقلن :

ــ ما هذا الذى يصحبك ؟ !!

قلت ردا على تساؤلهن الصامت :

ــ أنه سبع الحديقة ، تناول غداءه فاخرجته ليتمشى ، لينعم بحريته ..

كن حولنا كالفراشات ، هائمات ، وما ان تجد الوحدة فرصتها بظهور أول ضوء للنهار ، حتى تطير خارجة من النافذة ، فما ان تجد احداهن فرصة للهرب لا تتوانى فى استغلالها .. احداهن احتمت باحد الحراس يسدد بندقيته ناحية السبع ، وأخرى هرولت ناحية باب الحديقة والقت بنفسها فى الشارع خارجها ، ثالثة قفزت داخل قفص من الأقفاص وأغلقت بابه عليها باحكام ، أما الرجال فكانوا فوق الأشجار يصرخون ويتصايحون ، والأطفال يلهون كأن شيئا لم يحدث قط ، بل ازدادوا سرورا ..

فجأة انقلبت الدنيا رأسا على عقب ، سمعت أحد مكبرات الصوت :

ــ دع السبع يا مجنون ..

لم أعرهم أدنى أنتباه ، فانا فى حماية الملك ، حقيقى أنه بطلقة واحدة يمكن الاجهاز عليه ، لكنه سيكون خسارة قومية كبرى ، وهناك تعليمات سمعتها منذ لحظة بالا يتهور أحد باطلاق النار على الحيوانات الا فى حالة اليأس التام ، لم التفت اليهم .. فلم أتبين

من بعيد ان أحدا ممن يمسكون بالبنادق قد دنا أو تقارب من مرحلة اليأس التام ٠٠

سعيد أنا فى تجوالى بصحبة سبع الغابة ، ملكها المتوج ، وكان السبع سعيدا لأنه حر ٠٠ سعيد بجنون الحرية وقد بدا ينتابه ، بدأت خطواته تتسع ، بدأ يجرى فى تؤده ، بدأت الحيوانات تفزع منه وتفر ، وتفسح له الطريق ، بدأ الحراس يضعون أصابعهم على الزناد ، بدأت مكبرات الصوت تولول صارخة :

ـ احترسوا أيها الحرس ، احمـوا أنفسكم فقط ، لا تطلقوا النار ، سنقدم للحيوانات جميعها طعاما به مخدر ، سيكون كل شيء على ما يرام ٠٠

لكن الحيوانات ـ كما خلقها الله ـ خرساء لا تتكلم ، أحيانا تفهم لكنها لا تفكر ، تحيا لتاكل وتتوالد وتتكاثر ، تطبق سنة الحياة كما وجدت فى الحيـاة ، اعتادت منـذ أمد طويل أن تعيش داخل الأقفاص ، أو خاضعة ذليلة لملك الغابة خوفا من جبروته ٠٠

الحيوانات تتطوح يمنة ويسرة من أثر المخدر سريع المفعول ، السبع يسير متايلا كما التختروان ، يلوك بين أنيابه قطعة ضخمة من اللحم ، ينظر الى بعينين محمرتين ، وكأنه يلومنى على منحه حريته التى استهدته ، وأرقته ، وحولت ليله الى نهار ٠٠ الحيوانات جميعها تهجع ، ويخيم على الحديقة صمت مريب ٠٠

يلتقط الحراس أنفاسهم ، يعودون الى صوابهم ، ويبدأون فى نقل الحيوانات المخدرة الى أقفاصها ، ويخرج المسئولون عن الحديقة، وعن الأمن من مكامنهم ، ويحيطون بى ، ويكبلوننى ، ويقتادوننى الى قفص السبع ، ويلقون بى داخله ٠٠

أفيق ، وأصرخ ، وصراخ يدوى خلفى :

ـ ابتعد ٠٠ سيقتلك السبع ٠٠

أشعر بجذبه قوية تلقى بى أرضا ، والحارس يقف فوق رأسى ناظرا الى فى غيظ شديد يصرخ مهددا :

ـ أمجنون أنت ؟ كان السبع على وشك أن يلتهم ذراعيك ٠٠

تذكرت أنى رفعت ذراعى ، وأسندتهما الى قضبان قفص السبع ، وأخذت أنظر اليه مشدوها بقوته ٠٠ مأسورا بجماله وهندامه ٠٠ تركنى لبى وسرح مع خيالى ، تذكرت أنى كنت على شفا الوقوع فى مصيبة كبرى ، نظرت الى الحارس لا أنا شاكر له انقاذى ولا أنا ناقم عليه الحرص على حياتى ، وانما شعرت برغبة حقيقية فى تحطيم القضبان ، واطلاق سراح الحيوانات جميعها ، وتمنيت ان يعاهدنى ملك الغابة نفسه ألا يسىء استخدام الحرية التى سأمنحها له ، كى يمنحها لرعاياه ٠٠

ودعت الحديقة وأنا أضحك ، وأبكى ، وأخلط بين النقيضين، بل أمزجهما مزجا ، وأرجهما رجا فى معدتى حتى تختلط أمام عينى كل المرئيات ، وتمتزج كل المسميات ٠٠

حياة رخيصة

أنا ، أحسد نفسى بدليل ما يحدث لى هذه الأيام ، الدنيا ترفل فى ثوب العيـد ، وأنا لا أجد ثوبا أرفل فيه ، منـذ أيام كانت عطلة الأسبوع ، تركت البيت سعيدا ، مبتسما ، طفلاى شقيان ، يضحكان قلبى قبل أساريرى ، غداؤنا اليوم تلبية لرغبـة الصغير الناطق ، حمام مشوى أو بالفريك ، مهمات اليوم كثيرة ، السيارة تهون كل المشاوير ، فى سوق الغلال يبيعون غذاء الطيور ، وعلف الخروف ، ضحية العيد ..

أنا ، أفيونى جرائد الصباح ، كشك عم أحمد مغلق ، غريب هذا الأمر ، رغم شيخوخته فانه أنشط الناس ، يسابق ضوء النهار ليفتح الكشك وليتسلم حصته من أفيون الشعوب المعـاصرة ، لم يتوان يوما ، ولو ألم به طارىء ما قامت زوجتـه العجوز بالمهمة ، ماذا ألم بالقوم ؟ ، فلأذهب الى الفرارجى ثم أعود اليه ..

ــ العجل على الأرض ..

قالها شقى من خلق الله ، كالعادة ، خمنت أن فردة كاوتش

هتكها مسمار ، أو قطعة زجاج ، ركنت السيارة ، غادرتهـا ، درت حولها ، تابعت الشقى ، ابتسمت ، فعلا العجل على الأرض ٠٠

دكان الفرارجى مفتوح ، لكنه غير موجود ، أقفاص الحمام . الفراخ ، الأوز ، البط ، الأرانب ، الرومى ، كلها دون استثناء تعلن عن نهم معدة البشر ، سألت عن الرجل ، عرفت أنه ذهب لاحضار البضاعة ، ابتسمت لتلك الكلمة الجامعة الشاملة ٠٠

اتخذت طريقى الى سوق الغلال بساحل روض الفرج ، مطلوب قشر فول للضحية ، واذرة للفراخ ، وحت فول للكتاكيت ، رائحة الحمام مشويا كان أو بالفريك تداعب خياشيمى ، ترددت لحظة ، ما يكون الغداء اذا لم يحضر الفرارجى الحمام ضمن بضاعته ؟ آخذ بمبة كما يقولون ، هنـاك البديل ، باعـة الجمبرى بجوار سوق الغلال ، ما على الا الانتظار حتى يحضر الفرارجى ، حينئـذ أقرر ، حمام أم جمبرى ، عدت لبائع الجرائد ، على أمـل التهـام أفيونى بالمقهى المجاور مع رشفات فنجان القهوة ثم أعود الى الفرارجى ٠٠

الحكاية فيها حكاية ، أنعطفت على بائع آخر ، تناولت منـه أفيون الصباح ، دلفت الى المقهى ، أفيونى ورق مليىء بسواد الاحبار والأخبار ، « اغتيال طائرة ركاب مدنية فوق بحر اليابان ، التقسيم وارد فى أدمغة الاخوة الأعداء فى لبنان ، تشاد على حافة حفرة من النار ، مكوك الفضاء يعود ويملأ بالفرحة صدر ريجان » البن مخلوط بالرمل والحنـاء ، أزحت الفنجـان بهدوء ، ناديت النادل وطلبت الشاى ٠٠

كان على ان أذهب الى روض الفرج ، ثـم أعـود للفرارجى ، لا مشكلة اذا لم يتيسر الحمام ، أشترى الجمبرى ، البدائل متوفرة ما دام الجيب عامرا ٠٠ آه ٠٠ نسيت الجيتار الذى يصر ابنى على

اقتنائه ، أمامي المتجر الشعبى ، نفحت النادل ثمن مشروبات أنفت نفسى عن تناولها ، دلفت الى المتجر ، ألقيت نظرة ثم تحية على البائعة، سألت عن الجيتار ، قالت : « خلص » ، سألت : لن تأتى دفعة أخرى ؟ » ردت : « الله أعلم » ، تمتمت وأنا اتذكر كشك الجرائد ، والفرارجى ، والجيتار ، « اللهم اجعل الخير فى ركاب يومنا » ..

الساعة تدنو من الحادية عشرة ، لابد وانه عاد بالبضاعة ، أوقفت سيارتى أمام الدكان ، لا أحد ، لا ، حكايته أيضا حكاية ، يبدو أن الغداء جمبرى مسلوق و مقلى بالزيت ، وابتاع غذاء الطيور وقشر الفول للضحية ، واعود سالفا الى طفلى ، ولألحق صلاة الجمعة .

اختصرت الطريق لأصل الى سوق الغلال ، أوقف تقدمى غلق الشارع الرئيسى ، اتجهت يمينا ، فيسارا ، فيسار اليسار ، أيضا مغلق ، عدت يمينا وأشار أحد المارة الى بعيد : « هناك شارع يفضى بك الى طريق الكورنيش » شكرته رغم علمى بدروب هذه المنطقة لانها كانت ملعب طفولتى ومرتع صباى ..

دفعت السيارات سيارتى رغما عنها الى الاتجاه المضاد لوجهتى، أحاول الفكاك منها والمروق من أقرب فتحة فى الرصيف الأوسط ، نجحت أخيرا ، لكن على سيارتى ان تقلد سير السلحفاء ، الثوانى تفر هاربة ، والدقائق تهرع متعجلة ، وحين وصلت الى المفارق أمرتنى ذراع شرطى المرور بالسير قدما الى الأمام ، لمحت بطرف عينى اليسرى شارع السوق ، وجدته مغلقا بأكوام الأتربة ، والحفارات العملاقة ، تذكرت مشروع انشاء كوبرى روض الفرج ، لعنت الصباح ، ولا ذنب له ، والطيور وخروف العيد ، برائتها تنبىء عنها ترفعها الأبدى عن الكلام ..

اضطرتنى دورة الطريق الى المرور على الفرارجى ، أنه فعلا خرج ولم يعد ، وعدت الى البيت ..

اليوم عيد ، لا أجد ثوبا أرفل فيه كبقية خلق الله ، بالأمس ، تنفست بارتياح بعد تبدد حزنى لموت بائع الجرائد ، لم يبق لأسرتى من الضحية الا قطعة لا تزيد على ثلاثة كيلو جرامات ، والدهون ، والرأس ، والجلد المكسو بالصوف ، حمدت الله ، لم يزد افطارنا اليوم عن لقيمات ألقيناها فى طبق الحساء ، واصطدناها بالملاعق ، سنة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، هنأت زوجتى وابنى ، وقبلت طفلتى الخرساء لصغر سنها ، جلسنا فى انتظار الضيوف ، جاء بعضهم مهنئا بالعيد وانصرف ، وفى الظهيرة ، هتفت زوجتى : « البنت عندها اسهال » ، لم أعط للأمر أهمية ، فدواء الاسهال متوفر لدينا ، ناولتها جرعة ، وجرعة أخرى بعد أن ظلت الصغيرة محتفظة بالجرعة الأولى فى فمها ، ثم قذفت بها الى الخارج ، تأكد لدى ان المكر يسرى فى عروق طفل اليوم ، طفلتى تمتنع اولا بغلق فمها لا مفر من اغلاق فتحتى أنفها حتى تبتلع الدواء ، ويزدرد وجهها وكأنها على وشك الاختناق ..

ولت الظهيرة ، أقبل المساء ، هتفت زوجتى : « الولد ساخن »، بسيطة عندك اللبوس مهبط الحرارة ، صرخ الولد : « لا أريد اللبوس ، لا أريده » أخذ يتقافز فى الهواء ، تناولت مقياس آمون للحرارة ، ألصقته بجبهته ، الحرارة مرتفعة جدا ، صرخت فيه : « كف عن الشقاوة » ، قال فى تبجح أضحكنى : « ياأخويا دعنى ألعب » ، أمسكته عنوة مغضيا الطرف عن صراخه ، دست زوجتى اللبوسة فى فتحة شرجه ، قام مغتاظا ، جرى الى الحمام ، عاد بعد هنيهة مسرورا لتخلصه منها ، قامت زوجتى الى الثلاجة العامرة بالأدوية ، أحضرت زجاجة صغيرة ، وضعت منها خمس نقاط على ملعقة ماء تناولها الولد مستريحا ..

جاء ليل تمنيت ألا يجيىء ، مقدماته بشرت بالمتاعب الكامنة فيه ، اسهال البنت لا يتوقف ، ارتفعت حرارتها هى الأخرى ،

الساعة العاشرة ، ارتدت زوجتى ملابسها : « سأذهب الى الدكتور » ، قلت يائسا : « اليوم عيد » ، قالت : « بيته أمام العيادة » ..

عادت بعد ساعة بالدواء ، والتشخيص ، أنفلونزا حادة عند الولد ، التهاب بالأمعاء والزور عند البنت ؟ كيف ؟ ، انهما لم يتناولا شيئا من لحم الضحية حتى الأن ، اللهم الا بعض الحساء ..

لم يتملكنى اليــأس ابدا الا فى تلك الليلة ، حاصــل جمع الثوانى والدقائق والساعات والأيام والشهور والسنين متاعب بالليل والنهار ، حاصل جمع الحب والخطوبة والزواج والانجاب آلام تمزق الاحشاء ، حاصل جمع المرتب والأجر الأضافى والحوافز والعلاوة التشجيعية والمكافأة النصف شهر صفر ، تقــافزت المتاعب والآلام والاصفار فوق السرير ، والكنبة ، والتسريحة ، والصوان ، وافريز النافذة ، تماما كتقافز الشياطين فى مخيلتى ، هرعت الى فراش أبنى لأضع له كمادات الماء المثلج فوق جبهته الملتهبة ..

خرجت الى الشرفة ، بى فكرة مجنونة ، عقلها شط ، قلبهــا فط ، أحاسيسها جماد ، سقطت سيجارتى الى أرض الشارع ، تفتتت، تناثرت شظاياها متوهجة ، سرعان ماخبت ، كنت على وشك أن .. .. جاءنى صراخ ابنى عبر الصالة « بابا .. بابا » ، هرولت اليه ، تلقفته بين ذراعى ، صحت فيه : « ما بك ؟ » ، قالت زوجتى وهى تتثاءب مرهقة : « قام ولم يجدك بجواره » ..

مقاطع من مهزلة عائلية

سمعت ان علاء ابن خالتى سافر الى بلد أفريقى ، أخيرا تزوج وصخب زوجتــه معه ، استقال من عمله باحدى الجامعات لضآلة الراتب ، وسعــة المتطلبــات ، وسمعت ان أختــه عديلة تزوجت وسافرت لتعيش مع زوجها فى قرية من قرى كفر الشيخ ، وسمعت ان أخاه عبد الله سافر الى ليبيا ليعمل مدرسا بعد أن أدى الخدمة العسكريــة ، وسمعت أن أخــاه حسنى ســافر الى أبو ظبى وترك زوجته وطفليه عند أمها ، وسمعت أن أباه قد هده مرض السكر ، أفقــده اللحم وأبقى على العظــام ، وما هى الا أشهر قليلة ويحدد قانون العــاملين اقامته فى انتظــار الموت ، وسمعت أن أمه أقعدها هزيمة الساقين لتكاثف الشحم واللحم عليهما ، وسمعت أن أخته « حسن » غيرت اسمها الى أميرة قبل أن تتزوج بزميلها فى العمل ، وأيضا لما سببه لها الاسم الأول من حرج كثير ســواء فى الجامعة أو الوظيفة ، كما سمعت ان أخته منى ترفض الزواج لانها لم تقابل فتى الأحلام ، وأن التقدم فى السن يمكن ان يهزمه الجمال والبهاء .

أعوام طويلة ، منذ عهد الصبا وأنا أسمع عن خالتى وأسرتها ، وعن علاء ابنها الذى لم تأت أى أم بمثله لا فى الشرق ولا فى الغرب

ولا فى هـذا الزمان ولا الأزمان الغـابرة ، فهو رب الأسرة الفعلى ، الآمر الناهى ، وصاحب الصولجان ، هو أيضا المتحكم فى مقدرات الأسرة المالية ، وقبل أن يحصل على أى أيراد كان يتحكم فى جيب أبيه ، كتحكمه فى قدرات أفراد الأسرة الفكرية والنفسية والروحية.

لا زلت أذكر الشقة التى يسـكنونها ، والتى تضم حجرتين كبيرتين نسبيا ، وصالة مربعة أربعة أمتار فى أربعة أمتار ، حجرة للنوم وتضم عددا من الأسرة للأب والأم والبنات ، وحجرة الجلوس ذات الاستخدامات المتعددة ، فهى لاستقبال أى زائر يأتى مضطرا ، وهى مقسمة بين ثلاثة أو أربعة للمذاكرة ، وهى فى الليل حجرة نوم تضم الصبيان ، وقسمت الصالة بين الباقين للمذاكرة ، يعمل الأب فى منشأة حيوية ، رقى على امتداد سنوات عمله من عامل الى ملاحظ، الأولاد — بنين وبنات — فى مراحل التعليم المختلفة من الابتدائى الى الثانوية العامة ، الشقة ضيقـة ، شكلها لافتـة نيون كبيرة تقول « ممنـوع الزيارات لحين انتهـاء الامتحانات » ، وكانت بقيـة أسر العائلة تلتمس الأعذار لعدم زيارتهم ، ومن بينهم أسرتى ..

خامرنى احساس على امداد السنوات بأن حالة الطوارىء هذه لابد وان تنته يوما ، حين ينتهى نصف العدد على الأقل من دراستة يستطيع الباقون اعلان حالة الطوارىء فى نطاق ضيق ، حجرة واحدة مثلا ، وتعود حجرة الجلوس الى استقبال الزوار من أهل ومعارف وأصدقاء ، تدله احساس بى الى أن العدد الذى سينتهى من دراسته وينتظر الحياة العملية سيعلن الثورة على القواعد المفروضة والتقاليد المرعية ، سيحسون بانقطاعهم عن العالم من حولهم ، سيدركون ان حالة الطوارىء بقيودها الصـارمة ، وأغلالها الصـدئة لا يمكن أن تدوم ، سيشعرون بأن العالم من حولهم قد تغير وتبدل ، وان المذياع الصـامت أبدا فى الشقـة لا جدوى من بعث الحياة فيه ، فحولهم

الأسر تجتمع حـول التليفزيون تتـابع الشرائط السـينمائية ، والمسلسلات ، والحفلات ومباريات كرة القدم ، سيدركون أن وعيهم تأخر بالتكنولوجيا الحديثة التى غزت حياة الأسر ، فالثلاجة لحفظ الأطعمة وتبريد المياة ، والغسالة لراحة ربة البيت سرعة وانجازا ، والمكنسة للتنظيف ، والمروحة لتلطيف حرارة الصيف ، وغيرها من وسائل بدت ترفيهية فى مبدأ الأمر وصارت ضرورية بتقدم الزمن ، واسترخى بى الاحساس بأن هؤلاء الثوار سيعلنون ثورتهم أيضـا على الزى الواحد لكل سنة ، ونوع الطعام الواحد لكل وجبة، والباب المغلق دوما فى غير المواعيد الرسمية ، وعلى نوبتجيات الصحو والنوم وعلى الصمت الذى جعل لغة التفاهم عملة صعبة ، وعلى الأحاسيس المكبلة ، فالصبـا قد ولى دون التمتع بالشقاوة فيه ، دون مختلف الالعاب « الحجلة والمساكة » بالنسبة للبنات خـلاف تعلم أعمـال البيت من غسيل وتنظيف واعداد طعام ، « والبـلى والكرة والطرة والوزير وعسكر وحرامية وركوب الدراجات » بالنسبة للصبيان ، والمراهقة قد أدبرت دون التمتع بأحلام اليقظة وأحلام النوم ، وارتياد الحدائق والمتنزهات ، ودور الخيالة ، وأيضا دون التعرف على الجنس الأخر خارج نطاق الأسرة ، افتقاد تجربة الحب الأول ٠٠

ذهبت مـرة مهنئا حين نال عـلاء ـ الابن البـكر ـ شهادته الجامعية ، هالنى ان لغة الكلام والتفاهم بينى وبينه مفقودة ، يباعد الصمت بين وجهات النظر ، لا الاشارات أومأت الى موضوع مشترك يمكن التحدث فيه ، ولا صلة القربى جعلت للزيارة معنى ٠٠

بعد حين سمعت أنه سافر الى السعودية ليعمل هناك بمؤهله الجـامعى ، وانه يبعث للأسرة بكل ما بهره ويبهره من تكنولوجيا العصر ، وتيسرت أحوال الأسرة بعد سداد كل الديون التى تراكمت تراكم سنين المعاناة ، ثم عرفت أنه ادخر الكثير ، وسافر الى مدينة أوروبية للحصول على الماجستير ثم الدكتوراه ٠٠

وجاء لقائى بعلاء بعد حصوله على الماجستير ، وعودته فى أجازة ، والغريب الذى أثارنى قيامه بزيارتى هذه المرة ، منذ عهد الصبا ، حتى أنى بادرته قائلا فى تهكم :

– جميل أنكم مازلتم تذكرون بيتنا ..

كانت زيارة قصيرة ، هنأنى فيها بزواجى ، ودعانى لحضور عقد قران أخته أميرة « حسن » سابقا ، وبعد أنصرافه شغلت بالتفكير ، ماذا جرى فى الدنيا ؟ ارتفعنا وتواضعت نفوسنا ، وأيا كان شطط التفكير ، فاننى توسمت فى زيارته خيرا ، فأنا وهو فى عمر واحد تقريبا ، فضلا عن صلة القرابة ، أمه خالتى وأمى خالته ، ولم أمنح للتردد فرصة حين أطل فى أم رأسى وقررت حضور حفل عقد قران أميرة ..

لا تملك أحاسيسى الا الحزن والأسى ، فلا أحد يعرف أحدا ، ولا روافد الحياة تحمل كلها ماء ، تنوعت بين الأشياء ، رافد يحمل طينا ، وأخر يحمل زلطا ، وثالث يحمل رملا ، ورابع يحمل زيتا ، وخامس يحمل بترولا ، وسادس ، وسابع ، و .... كان مجتمع عقد القران مجتمعا لا انسانيا ، ولا حيوانيا ، بل كان مجتمعا للجمادات يتماوج فيه طبل الأطفال الذين لا يدركون الا اللهو واللعب ..

انتابتنى حالة من الذهول والنقمة ، قرابة عامين وأنا أعانى القرف ورغم ذلك فقد كانت تأتينى أنباؤهم المتواترة ، وفى محاولة للخروج بنفسى من حالة القرف فكرت فى القيام بمبادرة زيارة خالتى بعد أن علمت ان علاء عاد من الخارج فى أجازة ، كنت ممتلئا بالغضب ، فان كانت العودة لا تملك شيئا ازاء هذا الجمود ، فصلة الرحم تملك ، وان كانت صلة الرحم لا تملك شيئا ازاء تلك

القطيعة فالدين يملك ناصية الأمم والشعوب والقبائل ، ولابد من تبادل العتاب ، ولابد من الخروج بصلة الرحم من قبرها ، والمودة من سجنها ..

أتت مبادرتى بثمار طيبة ، وامتلأت بالأمل ، لم تعد اذنى تسمع أخبارا من غير مصادرها ، ولا عينى ترى أمورا تحتمل الصدق والكذب ، تبادلنا الزيارات فى أجازاته والرسائل أثناء سفره ، وتقاربت الأسرتان بشكل يرضى الله والضمير ..

شىء ما لا أدرى كنهه ، فرض وجوده بعد فترة من الزمن ، جعلنى أدور فى فلك الأفكار مفتشا ، محققا ، مبعثرا ..

أنا من أبوين مصريين ، مثل علاء تماما ، عانت أسرتى الفقر والحاجة وضيق ذات اليد مثل أسرته تماما ، لم تتحمل أسرتى ضغوط الحياة لأمد طويل ، ومنعنى احساسى بالمعاناة وأنا الابن الأكبر من الاستمرار فى الدراسة حتى الجامعة ، واكتفيت بمؤهل متوسط والتحقت بالعمل ، نصف الطريق مشيته فى حين مشى علاء طريقه كله ، ويزيد ، يعد نفسه للدكتوراه كما تناهت الى أذنى أخباره ، وتناهت أيضا الى أذنيه أخبارى ، علم اننى حصلت على كل وسائل الحياة العصرية حتى السيارة ، وأنا أعيش فوق تراب وطنى، بامكاناتى المتوسطة ، ودون الحيدة عن طريق الشرف ، ودون أى بذل من ذاتى ، أو روحى ، أو أخلاقياتى ، فقط بالتفانى فى العمل وبذل العرق ، وقد آلمه أشد الايلام بلوغه الخامسة والثلاثين دون زواج ، فما زال يبحث عن الاستقرار ، والسكن الى زوجة طيبة ..

حين توصلت الى هذا الاستنتاج بعد معاناة الشطط استراحت نفسى ، وهدأت أحاسيسى ، وعادت أفكارى الى وضعها الطبيعى ، وليجر كل فى واديه الذى حفره بأظافره لنفسه وبنفسه .

بعد فترة طويلة توقفت لأتساءل : ماذا يريد هؤلاء الناس ؟

جاء هذا التساؤل عند زيـارة حسنى الأخ الأوسط ، وبايحـاء من علاء نفسه ، يدعونى لحضور عقد قرانه ، يا سبحان الله ، علاء نفسه لم يهتم بدعوتى لحضور عقد قرانه فى زواج سمعت عنه حين تم ، وحين باء بالفشل بعدها بأسبوعين ، كما لم يأبه بدعوتى لحضـور عقد قران أخته لبنى الذى تم منذ عدة شهور ، هذه المرة لم أرهق نفسى مع الأفكار ، اكتفيت بأن اقنعت نفسى بأن الأمر لا يستحق والقيت بالدعوة فى سلة المهملات .

مضت سنوات ، استراحت تماما صلة الرحم فى قبرهـا ، ورضيت المودة عن قناعة بالقضبان تمنع عنها الحياة ، لكن الحياة شيدت أساسا على قطبى الايجاب والسلب ، تفرض وجودها دائما ، ففى لحظة صفـاء مع النفس تتجـلى الذكريات ، تنتعش اللحظـات السعيدة واللحظات التعيسة فى الذاكرة ، تذكرت قبر صلة الرحم، وسجن المودة ، خاصة وقد تناهى الى سمعى أن زوج خالتى فى حالة صحية سيئة ، وانه وقع فى براثن الضغط والسكر ، وكم من مرة طلب أبى أن أصحبة للزيارة ، فكرت فى مبادرة أخرى ، وتمنيت ان يكون حظها أحسن من حظ سابقتها ، تؤتى ثمارا طيبة لا يفسدها الزمن الآتى ، على أمل أن نترك أولادا يعرفون بعضهم البعض ، وأحفادا بينهم مودة ورحمة ..

كنت سعيدا حين وجدت الأسرة مجتمعة فى البيت ، عديلـة وزوجها ، أميرة « حسن » سابقا وزوجهـا ، حسنى وزوجته ، عادل وزوجته ، علاء وعبد الله ولبنى وزوجها ومنى ، وخالتى وزوجها ، ومع التواجـد للجميع ، بدا فى الجو نوع من التأنق ، والتألق ، ليسوا فى انتظارى فى هذه الأبهة ؟ قد يكونون فى انتظار ضيف له مكانة دونهـا مكانتى ، الجميع مشغولون ، يذهبـون ويجيئون ، لذت بزوج خالتى هربا من الموقف الغامض ، اسأله عن صحته ، عن

أحواله ، عن بعض الذين لا أراهم الا لماما وحمدت الله على شفائه ، سألنى عن أبى وأمى واخوتى ، وفى حرج شديد بعد أن تعبت رأسه من التلفت يمنه ويسره ، وبعد تلقى بعض الايمـاءات من هنا ومن هناك :

ـ عقبال أبنك ، الليلة تتم خطوبة عبد الله ..

قلت مجففا عرقى ، وشهقة مرة انزلقت الى داخل صدرى :

ـ ألف مبروك ، ربنا يتمم بخير ..

تدخل علاء قائلا :

ـ يسعدنا أن تشرفنا ، الحقيقة طلب أهل العروس أن يكون الحفل عائليا ، لهذا لم ندع أحدا حتى أعمامى وخالاتى ..

قلت ومنديلى يمتص نتاج خجلى :

ـ خيرا ما فعلتم ..

هممت مستأذنا ، تنفست فى الشارع هواء رطبـا ، اتخذت قرارى ، ولا رجعة فيه ، لا صلة رحم ، لا مودة ، لا يحزنون ..

تفجرت المأساة فى أعماقى اليوم ، فرضت الحياة نفسها بأن دفعت قدمى الى شارع لا أطرقه الا كل سنة مرة ، التقيت فيه وجها لوجـه مع علاء وعبد الله ، احتضنتهمـا وقبلتهمـا قبلتى ترحيب زائفتين :

ـ حمدا لله على السلامة ..

ـ الله يسلمك ..

ـ متى عدت من السفر ياعلاء ؟

ـ منذ يومين أو ثلاثة ..

ـ وانت يا عبد الله ، حمدا لله على سلامتك ..

ـ الله يسلمك ..

ـكيف الأحوال ؟

ـ على مايرام ..

وتلفتنـا ثلاثتنـا نبحث عن مخرج ، من موقف غير متوقع ، وكانت يدى صاحبة المبادرة اذ امتدت لمصافحتهما وانتشال ثلاثتنا من الغرق فى بحيرة ركد ماؤها ، وطفا على سطحها العفن ..

فهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩١/٤٩٤٦

ISBN — 977 — 235 — 008 — 4